بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قلوبٌ بين يدي القدر

سِيَرُ العشرة المبشرين بالجنة

أبو بكر — عمر — عثمان — علي — طلحة — الزبير
سعد — سعيد — عبد الرحمن بن عوف — أبو عبيدة

من صدقٍ لا يعرف التردد، إلى عدلٍ لا يعرف المحاباة

السيرة الكاملة — الطبعة الموسّعة

مقدمة

۞ ۞ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي هدى قلوباً كانت في ظلمة الجاهلية فأصبحت بنوره منارات، والصلاة والسلام على مَن كان سبب هذا التحول كله، وعلى آله وصحبه الذين حملوا هذا النور من بعده فأضاءوا به الدنيا شرقاً وغرباً.

أكتب هذه السطور وفي القلب خشيةٌ صادقة لا أدّعي معها علماً ولا أزعم فيها فضلاً؛ فكيف يجرؤ قلمٌ ضعيف أن يقترب من سِيَر رجالٍ زكّاهم الله من فوق سبع سماوات، وشهد لهم نبيّه صلى الله عليه وسلم بالجنة وهم أحياء يمشون بين الناس؟ إن الحديث عنهم أمانةٌ ثقيلة، وكل حرفٍ يُكتب في حقهم يحتاج إلى ميزانٍ من الصدق والدقة لا يحتمل الزلل ولا التزيّد. فإن وُفّقتُ إلى شيءٍ من الصواب في هذه الصفحات، فذلك من فضل الله وحده، وإن كان فيها تقصيرٌ أو خطأ، فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله منه، وأسأل كل قارئٍ عالم أن يصحح ما زلّ فيه القلم برفق.

ولستُ هنا لأروي تاريخاً جافاً تُحفظ فيه التواريخ وتُعدّ فيه المعارك، بل لأقترب، بقدر ما يسمح به الأدب من هذه الحرمة، من قلوب هؤلاء الرجال العشرة الذين بشّرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة بأسمائهم، لأسأل السؤال الذي يشغلني منذ بدأت هذا العمل: كيف تتحول نفسٌ بشرية من القسوة إلى الرحمة؟ كيف يتحول الخوف إلى يقين، والتردد إلى ثبات، والغنى إلى زهد، والسلطة إلى أمانة تُقلق صاحبها بدل أن تُريحه؟ وكيف تلتقي عشر شخصياتٍ مختلفة كل الاختلاف في طباعها، فتتفق جميعاً على جوهرٍ واحد من الصدق والتضحية، حتى تُختم حياة أكثرهم بدمٍ يُراق في سبيل هذا الجوهر بالذات؟

عنوان هذا الكتاب، 'قلوبٌ بين يدي القدر'، ليس مجرد عبارةٍ أدبية أردت بها التزيين، بل هو خلاصة ما وصلت إليه بعد طول تأملٍ في هذه السِّيَر العشر: أن هؤلاء الرجال، على عظمة ما بلغوه من إيمانٍ ومكانة، ظلوا بشراً تتقلب قلوبهم كما تتقلب قلوب سائر الناس، يخافون ويرجون، ويترددون ثم يثبتون، ويُبتلَون فيصبرون أو يجزعون قليلاً ثم يعودون. لم تكن عظمتهم في أنهم وُلدوا معصومين من الضعف الإنساني، بل في أنهم، حين وقفوا أمام لحظة الاختيار الحاسمة، اختاروا الله على كل شيءٍ آخر، مهما كلّفهم ذلك من دمٍ أو مال أو راحة. وهذا بالذات ما يجعل سِيَرهم قريبة من قلب كل قارئ لا بعيدة عنه: فهم لم يكونوا ملائكة، بل كانوا رجالاً، ولكنهم رجالٌ عرفوا كيف يُسلّمون قلوبهم بين يدي القدر بثقةٍ لا تتزعزع.

حاولتُ في هذا الكتاب أن أمزج بين ثلاثة أصوات: صوت العالم الرباني الذي يستخلص من كل موقفٍ عبرةً تصلح للقلب وتزيده قرباً من الله، وصوت الأديب الذي يتأمل في تكوين الشخصية وبناء المعنى، وصوت مَن ينظر إلى أعماق النفس البشرية وتناقضاتها الدفينة قبل أن يستقر أمرها على الحق. ولا أزعم أنني وُفّقت في هذا المزج كما ينبغي، فهو طموحٌ أكبر من قدر كاتبٍ واحد، لكنني أرجو أن يجد القارئ في هذه المحاولة ما يُقرّبه من هؤلاء الأعلام قرباً يزيده حباً لهم واقتداءً بهم لا مجرد معرفةٍ بأخبارهم تمر مرور الكرام.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً لمن قرأه، شفيعاً لا وبالاً على كاتبه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم. وأسأله سبحانه أن يحشرنا مع هؤلاء الأخيار الذين نكتب عنهم لا لأننا بلغنا شيئاً من منازلهم، بل لأن المرء مع من أحب، وقد أحببناهم صادقين، والله من وراء القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

۞ ۞ ۞

الباب الأول

أبو بكر الصدّيق

أول مَن آمن بلا تردد، وأول خليفةٍ حمى الدين من الانهيار

الفصل الأول

الصدق قبل الصدّيقية — نشأته في الجاهلية

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب ومكانة الصدق المبكرة

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، من بني تيم، أحد بطون قريش الوسطى في المكانة، لكنه كان الأعلى بينها في شرف الخُلق. وقد وُلد بعد عام الفيل بنحو ثلاث سنين، فكان أصغر من النبي صلى الله عليه وسلم بيسير، ونشأ معه في بيئةٍ واحدة، يتنفسان هواء مكة نفسه، ويشهدان أسواقها وموسمها ومفاخراتها القبلية نفسها. ومنذ شبابه الأول، قبل أن ينزل عليه وحيٌ يأمره بشيء، اشتهر أبو بكر بصفةٍ نادرة الوجود في مجتمعٍ تحكمه العصبية والغلبة والتفاخر بالقوة: الصدق المطلق الذي لا يعرف المواربة ولا نصف الحقيقة، حتى صار اسمه عند قومه مقروناً بالثقة قبل أن يُقرن بالإيمان بزمنٍ طويل. وهذا أمرٌ يستحق التوقف عنده: أن يبني رجلٌ لنفسه مكانةً اجتماعية راسخة لا بالسيف ولا بكثرة العدد ولا بالمال وحده، بل بشيءٍ أكثر هشاشةً في الظاهر وأشد صلابة في الجوهر، وهو الكلمة التي لا تتغير بين الليل والنهار.

لم يُعرف عنه أنه سجد لصنمٍ قط بحسب بعض الروايات، ولم يشرب خمراً في جاهليته رغم انتشارها بين سائر شباب قريش، وكان محبباً إلى الناس لسهولة خُلقه، ودمث معشره، وصدق حديثه في كل تجارةٍ يعقدها، حتى إن مَن عامله مرة كان يعود إليه دون سواه، ثقةً منه أن الميزان لن يُبخس ولا الكلمة ستُنقض. وهذا النوع من الصدق ليس صدقاً عارضاً يظهر حين يُختبر، بل هو نسيجٌ كاملٌ في الشخصية، ينسحب على كل تفصيل من تفاصيل الحياة اليومية، حتى صار جزءاً من هويته لا فعلاً يمارسه بين الحين والآخر.

كان تاجراً موسراً، خبيراً بأنساب العرب وأخبارها، حتى كان يُقصد لهذا العلم كما يُقصد أهل الفتوى لفتواهم، فيجلس إليه شيوخ قريش يسألونه عن فروع القبائل وأحلافها ومنازلها، وهو علمٌ لا يُتقنه إلا مَن أفنى فيه وقتاً طويلاً من التأمل والحفظ والمخالطة. وهذا الجمع بين نجاح التجارة، وسعة العلم بالأنساب، ورقة الخُلق، صنع من أبي بكر شخصية اجتماعية مرموقة قبل الإسلام بزمنٍ طويل؛ فحين جاءته الدعوة، لم يكن رجلاً مغموراً يبحث عن مكانة يكسبها من انضمامه إلى صفٍّ جديد، بل رجلاً ذا وزنٍ حقيقي بين قومه، له من الجاه والمال والاحترام ما يخسره كله في لحظة إعلان إيمانه. وهنا يكمن سرّ عظمة الموقف: أن يخاطر رجلٌ بكل ذلك

الوزن الاجتماعي المتراكم بعمر كامل، في سبيل يقينٍ قلبي لا يملك عليه دليلاً حسّياً واحداً سوى معرفته العميقة بصاحبه.

◆ ٢. الصداقة التي سبقت الرسالة

لم تكن علاقة أبي بكر بمحمد صلى الله عليه وسلم علاقة طارئة بدأت مع الدعوة، بل كانت صداقةً عميقة سبقت النبوة نفسها بسنين طويلة، نشأ الرجلان في مكة قريبين في السن والمكانة، يلتقيان في مجالس قريش وأسواقها، ويعرف كل منهما صاحبه معرفة القلب لا معرفة الظاهر فقط. وهذا النوع من المعرفة المتراكمة عبر سنين المعاشرة اليومية يصنع يقيناً من طبيعة مختلفة تماماً عن اليقين الذي يُبنى على معجزة عابرة أو خطاب مؤثر يُسمع مرة واحدة؛ فالمعجزة قد تُنسى أو يتطرق إليها الشك بعد حين، أما معرفة رجلٍ بصدق صاحبه عبر عقدٍ كامل من التعامل اليومي في التجارة والسفر والمجالسة، فهي معرفةٌ تستقر في الوجدان استقراراً لا يتزعزع بسهولة.

وهذه المعرفة السابقة هي ما تُفسّر أعجب مشهدٍ في تاريخ الدعوة: أن يُصدّق رجلٌ صاحبه في أعظم دعوى عرفها التاريخ البشري كله — أن الله أرسله رسولاً إلى الناس أجمعين — دون أن يطلب دليلاً واحداً، ودون أن يمهل نفسه ليلة يتفكر فيها كما فعل غيره ممن أسلموا لاحقاً بعد تردد. فيقينه لم يكن قائماً على معجزةٍ رآها بعينه، بل على معرفته العميقة بأن هذا الرجل الذي عاشره سنين، وشهد صدقه في أدق تفاصيل حياته لا يمكن أن يكذب لا على الناس ولا على نفسه، ولا سيما في أمرٍ بهذه الخطورة الذي إن كان كذباً لجلب على صاحبه العداوة والهلاك لا الجاه والمكانة.

الفصل الثاني

بلا تردد — أول الرجال إيماناً

۞ ۞ ۞

◆ ١. "لم تكن له كبوة"

حين عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام على أبي بكر، في تلك اللحظة الفارقة التي غيّرت مجرى حياة الرجلين معاً، لم يتردد أبو بكر لحظة واحدة، ولم يطلب مهلةً للتفكير كما فعل كثيرون ممن أسلموا لاحقاً بعد تردد وتفكّر ومراجعة، بل قَبِل الدعوة على الفور وكأنه كان ينتظرها منذ زمن طويل دون أن يدري. قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه في وصفٍ نادر لم يُطلق على غيره من الصحابة: "ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، إلا أبا بكر، ما عكم عنه حين ذكرته له". والكبوة هنا هي تلك اللحظة من التردد أو التلعثم أو طلب الوقت التي تعتري كل نفسٍ بشرية أمام قرارٍ يقلب حياتها رأساً على عقب، ومع ذلك لم تحدث لأبي بكر قط.

وهذه السرعة في الإيمان ليست سذاجة أو خفة عقل كما قد يظن من ينظر إليها سطحياً، بل هي الثمرة الطبيعية لرجلٍ عاش حياته كلها يبحث عن الصدق ويتحرى الحقيقة، فلما وجدها مجسّدة أمامه في هيئة صديقه الذي عرف صدقه عن قرب، لم يكن ليتردد في اتّباعه؛ فالتردد إنما يعتري مَن لا يزال يفتش عن دليل، أما مَن استقر عنده الدليل الأعمق — وهو معرفة صدق المخبِر نفسه — فلا حاجة له إلى مزيدٍ من التمحيص. وفي هذا فارقٌ جوهري بين إيمانٍ يُبنى على البرهان العقلي المجرد، وإيمانٍ يُبنى على معرفة القلب بصدق مصدره، وكلاهما طريقٌ مشروع، لكن الثاني كان طريق أبي بكر الذي جعله يسبق الجميع.

◆ ٢. صانع الإيمان في قلوب الآخرين

لم يكتفِ أبو بكر بإيمانه الشخصي وحده، بل تحوّل فور إسلامه إلى أعظم داعية عرفته الدعوة في أيامها الأولى الحرجة، مستخدماً في ذلك كل ما يملكه من مكانةٍ اجتماعية ومعرفةٍ بنفوس الناس وحسن تأتٍّ في الحديث؛ فعلى يديه أسلم عددٌ من كبار الصحابة الذين عُرفوا لاحقاً بالعشرة المبشرين بالجنة: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وهذا ليس رقماً عابراً يُذكر للتفاخر، بل يعني أن نصف

العشرة المبشرين بالجنة تقريباً دخلوا هذا الدين بسبب رجلٍ واحد استخدم صداقاته ومعارفه ليهديهم إليه.

وهذا الأثر المضاعف — أن يهدي الله برجلٍ واحد نخبة الأمة الأولى التي ستحمل الدين بعد ذلك في أصعب مراحله — لم يكن صدفة عابرة، بل ثمرة شخصية أبي بكر التي تجمع بين الصدق المُقنع الذي لا يتكلف، وبين محبة الناس له ومعرفتهم بأنه لا يقول إلا ما يعتقد. فحين كان يذهب إلى صديقٍ له من كبار قريش ليعرض عليه هذا الدين الجديد، كان الرجل يستمع إليه لا لأن حجته العقلية باهرة، بل لأنه يعرف مسبقاً أن أبا بكر لا يكذب ولا يغرر، وهذا وحده كان كافياً ليفتح له كثيراً من القلوب المغلقة.

◆ ٣. مال يُنفَق في سبيل الحرية

حين اشتد أذى قريش على ضعفاء المسلمين ومماليكهم الذين لا عشيرة تحميهم ولا قبيلة تنتصر لهم، وصار بعضهم يُعذَّب فوق رمضاء مكة الحارقة ليرتد عن دينه، كان أبو بكر ينفق ماله بسخاءٍ نادر في شراء مَن يُعذَّب منهم وعتقهم، غير منتظرٍ من ذلك جزاءً دنيوياً ولا شكراً يُقال. ومن أشهر من اشتراهم بلال بن رباح، ذلك العبد الحبشي الذي كان سيده أمية بن خلف يُلقيه على الرمضاء ويضع على صدره صخرة عظيمة ليموت أو يكفر، فيقول بلال وسط عذابه: أحدٌ أحد، فاشتراه أبو بكر بمالٍ كثير وأعتقه لله وحده، دون مِنّةٍ عليه ولا انتظار عوض دنيوي.

ولما لامه أبوه أبو قحافة على شرائه ضعفاءً لا قوة فيهم ولا نصرة يُرتجى منهم، وقال له: يا بني، أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك، لكان أوفق، أجابه أبو بكر بما يكشف أن نيته لم تكن يوماً سياسية تبحث عن أنصارٍ أقوياء، بل خالصة لله وحده لا يبتغي بها إلا وجهه. وقد نزل فيه، بحسب ما تروي بعض الآثار، قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾، وهذا التنزيل، إن صحت نسبته إلى هذه الحادثة، يضع أبا بكر في مصافّ مَن يُعطي لا لعوضٍ يُرتجى من المُعطَى، بل لعوضٍ يُرتجى من الله وحده.

الفصل الثالث

رفيق الغار — الهجرة

۞ ۞ ۞

◆ ١. 'إن الله معنا'

حين تآمرت قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم في مؤامرةٍ مُحكمة اجتمع فيها شبابٌ من كل قبائل قريش ليتوزع دمه بينهم فلا يقدر بنو هاشم على المطالبة بثأره من قبيلةٍ واحدة، وأُذن له بالهجرة إلى المدينة فراراً بدينه ونفسه، اختار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر تحديداً صاحباً لرحلته الأخطر في حياته كلها، دون سواه من كبار الصحابة. فخرجا معاً في جنح الليل، واختبآ في غار ثور، وهو خيارٌ بعيد عن الطريق المعتاد إلى المدينة، ليُضلّلا بذلك مطارديهم، وبقيا فيه ثلاثة أيام كاملة ينتظران هدوء البحث عنهما.

ولما وقف المشركون على فم الغار يبحثون في كل زاوية، وكانوا قريبين لدرجة أن أحدهم لو نظر إلى موضع قدميه لأبصر الرجلين مختبئين، خاف أبو بكر لا على نفسه بل على صاحبه، وهمس قائلاً: 'يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا'، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بثقةٍ لا تتزعزع نابعة من يقينٍ مطلق بحفظ الله: 'يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟'. وقد خلّد القرآن هذا المشهد بالذات في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهي الآية الوحيدة في القرآن الكريم كله التي وُصف فيها صحابيٌّ بأنه 'صاحب' رسول الله بالذات، تكريماً لهذا الموقف الفريد الذي لم يتكرر لغيره.

وما يستحق التأمل العميق في هذا المشهد ليس الخوف نفسه — فالخوف طبيعة بشرية أصيلة لا عيب فيها ولا نقص، بل مصدر هذا الخوف بالتحديد: لم يخف أبو بكر على روحه هو، بل على صاحبه الذي يحمل رسالة السماء؛ وهذا الفارق الدقيق بين الخوف الأناني الذي يتمحور حول الذات، والخوف الإيثاري الذي يتمحور حول مصلحة المحبوب، هو جوهر الحب الصادق الذي ربط الرجلين طوال حياتهما، والذي جعل أبا بكر يُقدّم سلامة صاحبه على سلامته هو في كل موقفٍ يليق فيه هذا التقديم.

◆ ٢. الحارس الذي لا ينام

طوال الطريق إلى المدينة، وهو طريقٌ طويل شاق يمتد أياماً عبر صحراء قاحلة محفوفة بالمخاطر من قُطّاع الطرق ومن مطاردي قريش على حدٍّ سواء، كان أبو بكر يتقدّم النبي صلى

الله عليه وسلم حيناً ويتأخر عنه حيناً آخر، في حركةٍ دائمة لا تهدأ، حتى سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن سبب هذا التنقل الغريب بين الأمام والخلف، فأجابه بجوابٍ يكشف عمق حرصه: 'أذكر الطلب فأكون خلفك أحرسك ممن يتبعنا، وأذكر الرصد فأكون أمامك أحرسك ممن يكمن لنا'. فكان بذلك يؤدي دور الحارس المتيقظ في كل لحظة لا يهدأ له بال ولا تسكن له نفس، طوال أيام الرحلة كلها.

وحين وصلا إلى الغار أول مرة، لم يدخله النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، بل دخله أبو بكر أولاً ليتفقده من الهوام والحشرات والثعابين المحتملة بيده هو، سادّاً كل شقٍّ يجده بقطعةٍ من ثوبه، وقال بكلماتٍ تختصر فلسفته في الحراسة: 'وإن كان لا بد من لدغة، فلتكن بي لا بك'. وهذا التفاني في الحراسة، الذي يضع جسده حرفياً درعاً بين صاحبه وبين أي أذى محتمل مهما كان صغيراً، يكشف مستوى من الإيثار نادراً ما يبلغه بشر تجاه بشرٍ آخر مهما بلغت المحبة بينهما.

الفصل الرابع

لقب لم يُمنح لغيره — الصدّيق

۞ ۞ ۞

◆ ١. تصديق الإسراء والمعراج

حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً في صبيحة أحد الأيام بأنه أُسري به ليلاً من مكة إلى بيت المقدس ثم عُرج به من هناك إلى السماوات العلا ثم عاد إلى فراشه في مكة، كل ذلك في جزءٍ يسير من ليلةٍ واحدة، ضجّت مكة كلها بالتكذيب والسخرية اللاذعة، إذ بدت هذه الرحلة مستحيلة عقلاً بمقاييس ذلك الزمان الذي كانت الرحلة نفسها تستغرق فيه شهراً كاملاً بالقوافل. وارتد بعض من كان قد أسلم حديثاً حين سمع هذا الخبر، ظناً منهم أن هذا تجاوزٌ للمعقول لا يمكن تصديقه. فأتى بعض المشركين إلى أبي بكر مسرعين، يحملون هذا الخبر بنبرةٍ ساخرة ظانّين أنهم سيهزّون يقينه بهذا الخبر العجيب الذي يبدو مستحيلاً.

فقال أبو بكر، دون أن يسألهم تفصيلاً واحداً عن كيفية الرحلة أو تفاصيلها، ودون أن يطلب وصفاً لبيت المقدس ليتحقق من صدق الخبر كما فعل غيره لاحقاً: 'إن كان قال ذلك فقد صدق... إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك: أصدّقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحة'. وفي هذا الجواب منطقٌ بالغ الدقة: فمَن صدّق أن الوحي ينزل من السماء على الأرض في لحظة، فتصديقه أن يُسرى بجسدٍ من مكة إلى بيت المقدس في جزءٍ من ليلة أهون بكثير، لأن كليهما خارقٌ للمعتاد، وقد سبق له أن آمن بالخارق الأول. فسُمّي من يومها 'الصدّيق' لا لأنه صدّق مرة واحدة عابرة، بل لأن التصديق صار طبعاً ثابتاً في قلبه لا تهزّه الغرائب مهما بلغت من الغرابة الظاهرية.

وهذا الموقف، حين نتأمله بعقلٍ يبحث عن جوهر الإيمان لا عن ظاهر القصة، يكشف الفارق الدقيق بين مَن يُصدّق بناءً على قدرته الشخصية على تخيّل الحدث أو تصوّره منطقياً، ومَن يُصدّق بناءً على معرفته العميقة بصدق المخبِر نفسه بصرف النظر عن غرابة الخبر. لم يكن أبو بكر رجلاً ساذجاً يقبل كل عجيبة تُروى له دون تمحيص، فهو التاجر الحصيف الذي عُرف بدقة حساباته وحسن تدبيره؛ لكنه كان رجلاً بنى يقينه على أساسٍ لا يتزعزع منذ البداية: أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يكذب، فإذا صحّ هذا الأساس المكين، فكل ما يُخبر به بعده هو تفصيلٌ يتبع هذا الأساس لا حَكماً مستقلاً يحتاج إلى دليل جديد منفصل في كل مرة يُخبر فيها بأمرٍ عجيب.

◆ ٢. في ساحات القتال

شهد أبو بكر بدراً وسائر الغزوات التي خاضها المسلمون، وكان في بدر إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في العريش الذي أُقيم له ليدير المعركة من موقعٍ آمن نسبياً، يحرسه بسيفه ولا يفارقه لحظة، وقد رُوِي أنه كان أشد الناس ثباتاً حين اهتزت الصفوف واشتد القتال لا يعرف الفزع طريقاً إلى قلبه رغم خطورة الموقف. وفي أُحد، حين شاعت بين صفوف المسلمين إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم في خضم الفوضى التي أعقبت مخالفة الرماة لأمره، كان أبو بكر ممن هرع فوراً للتأكد من مصير صاحبه، غير مبالٍ بخطورة التوجه نحو مركز المعركة المحتدمة.

وشهد كذلك غزوة تبوك، وهي الغزوة التي دعا فيها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإنفاق في وقتٍ عصيب من القحط والحر الشديد، فتصدق أبو بكر بماله كله دون أن يُبقي لأهله شيئاً، حتى سأله النبي صلى الله عليه وسلم: 'ما أبقيت لأهلك؟'، فأجاب بجوابٍ اختصر فيه كل توكله: 'أبقيت لهم الله ورسوله'. وهذا الجواب، الذي لم يجرؤ أحدٌ غيره على قوله بهذه الثقة المطلقة، يكشف مستوى من التوكل على الله يتجاوز حتى الحساب المادي المعقول؛ فالرجل الذي أنفق كل ماله لم يكن يظن أن أهله سيموتون جوعاً، بل كان يعلم علم اليقين أن مَن أنفق في سبيل الله لا يخذله الله في أهله.

الفصل الخامس

خليفة رسول الله — السقيفة وحروب الردة

۞ ۞ ۞

◆ ١. خطبة الخلافة الأولى

حين بويع أبو بكر خليفةً في سقيفة بني ساعدة عقب نقاشٍ محتدم بين المهاجرين والأنصار حول مَن يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في قيادة الأمة، وقف في الناس خطيباً في اليوم التالي مباشرة، بكلماتٍ لم تكن مجرد خطبة افتتاحية عابرة، بل صارت مرجعاً لكل حاكمٍ عادل جاء بعده عبر القرون: 'أيها الناس، إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني... الصدق أمانة والكذب خيانة... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم'.

في هذه الخطبة تأسيسٌ مبكر لمبدأٍ لم تعرفه كثير من الأمم والحضارات في ذلك العصر الذي كانت تسوده أنظمة الملك المطلق والتأليه شبه الكامل للحاكم: أن طاعة الحاكم مشروطة بطاعته هو أولاً لله ﷻ لا طاعةً مطلقة لذاته الشخصية بصرف النظر عما يأمر به. وهذا المبدأ، الذي يبدو بديهياً اليوم بعد قرون من التطور السياشي، كان في زمانه ثورة مفاهيمية حقيقية: أن يُعلن الحاكم بنفسه، في أول كلمة يقولها بعد توليه، أنه ليس معصوماً، وأن رعيته لهم الحق في تقويمه إن أخطأ، بل وفي عدم طاعته إن عصى.

◆ ٢. 'لو منعوني عناقاً': حروب الردة

ما إن توفي النبي صلى الله عليه وسلم حتى ارتدّت قبائل كثيرة عن الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، واستغل بعض المتنبئين الكذبة هذه اللحظة من الفراغ ليدّعوا النبوة، ومنعت قبائل أخرى الزكاة وهي مع ذلك تُقرّ بالصلاة وتشهد الشهادتين، ظناً منها أن الزكاة كانت حقاً خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم شخصياً انتهى بوفاته، وليست فريضة دينية باقية بعده. فرأى بعض كبار الصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه، أن يُترك هؤلاء المانعون للزكاة ما داموا يُصلّون ويشهدون الشهادتين، تخفيفاً على الأمة الفتية في هذا الظرف الحرج الذي تكاثر فيه الأعداء من كل جانب.

لكن أبا بكر، الرجل المعروف بلين جانبه ورقة قلبه الذي بكى مراراً من خشية الله، وقف هذه المرة موقفاً لا يلين قيد أنملة، وقال كلمته الخالدة التي حسمت الجدل: 'والله لو منعوني عناقاً

كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها... والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة'. فتراجع عمر أمام حزم هذا الموقف الذي فاجأه من صاحبه اللين، وقال لاحقاً معترفاً بصواب رأي أبي بكر: 'فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق'. وهذا التراجع من عمر نفسه، وهو الرجل الذي لا يتراجع بسهولة عن رأيه، شهادةٌ بليغة على قوة حجة أبي بكر ووضوح رؤيته في تلك اللحظة الفاصلة.

هذا الموقف يكشف بُعداً آخر من شخصية أبي بكر، مختلفاً تماماً عن الذي عرفناه في الغار وفي معاملته اليومية اللينة مع الناس: أن ليونة الطبع لا تعني بالضرورة ليونة المبدأ؛ فالرجل الرقيق الذي بكى مراراً من خشية الله حتى بلّت دموعه لحيته، هو نفسه الذي حزم أمره في أخطر أزمةٍ عرفتها الدولة الإسلامية الوليدة، ولم يتزحزح عن قراره قيد شعرة رغم معارضة رجلٍ بحجم عمر بن الخطاب له في بداية الأمر. وهذا يُعلّمنا أن الشخصية القيادية الناضجة ليست تلك التي تختار بين اللين والحزم كطبعٍ ثابت، بل تلك التي تعرف متى يكون هذا مناسباً ومتى يكون ذاك، فتطبق كلاً منهما في موضعه الصحيح دون تناقض.

◆ ٣. جمع القرآن

في أعقاب حروب الردة، وتحديداً في معركة اليمامة الشرسة ضد جيوش مسيلمة الكذاب، استُشهد عددٌ كبير من حفظة القرآن الكريم الذين كانوا يحملون كتاب الله في صدورهم دون أن يُدوِّن كاملاً في مكانٍ واحد، ففزع عمر بن الخطاب من هذا الاحتمال المرعب — أن يذهب جزءٌ من كتاب الله بموت حامليه — وأتى أبا بكر يقترح عليه جمع القرآن كله في مصحفٍ واحد يُحفظ رسمياً خشية أن تتكرر الكارثة في معاركَ قادمة.

تردد أبو بكر أول الأمر تردداً حقيقياً نابعاً من ورعٍ شديد، وقال: 'كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟'، خشية أن يكون هذا ابتداعاً في أمرٍ ديني لم يأذن به الوحي صراحة. لكنه بعد مراجعةٍ ونظرٍ عميقين، ومناقشةٍ مع عمر استمرت حتى شرح الله صدره للأمر، اقتنع بالمصلحة الشرعية العظيمة في حفظ كتاب الله من كل احتمال للضياع، وكلّف زيد بن ثابت، وكان من أحفظ الصحابة وأكثرهم دقة، بهذه المهمة الجليلة التي استغرقت جهداً ووقتاً كبيرين في التحقق من كل آية بشاهدين عدلين. وهنا مشهدٌ لطيف يستحق التأمل من التاريخ: أن الفكرة التي بدأها عمر بالاقتراح الجريء، والتي ترددت فيها همّة أبي بكر أولاً بدافع الورع الشديد، صارت بفضل الله أعظم عملٍ يُحفظ للأمة كتابها من الضياع إلى يوم القيامة، وتكامل فيه الرجلان كعادتهما في كل موقفٍ مشترك بينهما: عمر بجرأة المبادرة وسرعة الإدراك للمخاطر المستقبلية، وأبو بكر بحكمة التمحيص والتأني قبل اتخاذ القرار النهائي.

الفصل السادس

مواقف خالدة من حياته

۞ ۞ ۞

◆ ١. جيش أسامة :'لا أحلّ لواءً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم'

قبيل وفاته بأيام قليلة، وفي واحدةٍ من آخر مبادراته الاستراتيجية وهو على فراش المرض، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد جهّز جيشاً بقيادة الشاب أسامة بن زيد، ولم يتجاوز عمره حينها العشرين عاماً، لغزو الروم في تخوم الشام، فتوفي صلى الله عليه وسلم قبل أن ينفذ هذا الجيش خطته. وما إن تولى أبو بكر الخلافة في ظروفٍ بالغة الحرج، حتى ارتدّت قبائل كثيرة عن الدين في وقتٍ واحد كأنها اتفقت على ذلك، واشتد الخطر على المدينة المنورة نفسها التي بدت شبه محاصرة من كل الجهات.

فأشار كبار الصحابة، بمن فيهم عمر نفسه، على أبي بكر أن يُبقي هذا الجيش الكبير لحماية العاصمة في هذا الظرف الحرج بدل إرساله بعيداً إلى جبهة خارجية بينما الداخل يشتعل بالفتن. لكن أبا بكر رفض هذا الرأي المنطقي ظاهرياً برفضٍ حازم لا يلين، وقال قولته الخالدة: 'والله لا أحلّ لواءً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطّفنا والكلاب تُهارشنا حول المدينة'. وأنفذ الجيش بالفعل كما أراده النبي صلى الله عليه وسلم تماماً، دون أي تعديل في القيادة أو الوجهة، إيماناً منه العميق بأن أول واجباته كخليفة هو أن يُنفّذ عهود صاحبه صلى الله عليه وسلم بحذافيرها، ولو بدا القرار في ظاهره محفوفاً بأشد المخاطر.

◆ ٢. الخليفة الذي يخدم عجوزاً لا تعرفه

لاحظ عمر بن الخطاب، في تجواله الليلي المعتاد الذي يتفقد فيه أحوال الرعية، أن رجلاً يخرج كل فجرٍ إلى طرف المدينة البعيد يحمل شيئاً غامضاً على كتفه، فتتبعه يوماً بفضولٍ يريد أن يعرف سرّه، فوجده يدخل بهدوء على عجوزٍ عمياء مقعدة لا معين لها في الدنيا كلها، فيكنس بيتها الصغير، ويحلب لها ما تحتاجه من لبن، ويُهيّئ لها طعامها بيده، كل ذلك دون أن يُعرّفها بنفسه أو ينتظر منها شكراً واحداً.

فسألها عمر حين رجع، بفضولٍ لم يعد قادراً على كتمانه: مَن هذا الذي يأتيك كل يوم بهذا العمل؟ فقالت العجوز، وهي لا تعلم شيئاً عن هويته لا أدري مَن هو، لكنه رجلٌ يفعل ذلك منذ زمنٍ طويل دون أن يتكلم كثيراً. فتتبعه عمر وعلم أنه أبو بكر، فقال قولته المعروفة التي

تكشف اعترافه الصادق بسبقه في هذا الميدان الخفي من ميادين الخير: 'ثكلتك أمك يا عمر، ومَن يقوى على ما يقوى عليه أبو بكر؟'. وهذا الاعتراف من عمر، وهو رجلٌ لا يعترف بسهولة بتفوق أحد عليه، يكشف أن أبا بكر كان يسبق الجميع في ميادين الخير الخفية التي لا يراها الناس ولا تُروى في المجالس، بل تبقى بين العبد وربه وحدهما.

◆ ٣. 'ليتني كنت شجرة تُعضد'

رغم بلوغه أعلى المراتب التي يمكن أن يبلغها بشر، بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة بالاسم وهو حيٌّ يمشي بين الناس، ظل أبو بكر شديد الخوف من الحساب لا يهدأ له بال ولا يطمئن قلبه لهذه البشارة العظيمة، حتى قال يوماً وهو يمسك بلسانه بيده في مشهدٍ يكشف عمق هذا الخوف: 'هذا الذي أوردني الموارد'، مشيراً إلى خطورة اللسان وما قد يجرّه من زلاتٍ لا يحسب لها المرء حساباً. وقال في موضعٍ آخر، متمنياً الخمول والغياب عن هذه المكانة العظيمة التي بلغها: 'يا ليتني كنت شجرة تُعضد ثم تؤكل ولا أكون بشراً'، وهي أمنيةٌ غريبة الظاهر من أعظم رجلٍ بعد الأنبياء، لكنها في جوهرها تعبيرٌ صادق عن ثقل الشعور بالمسؤولية أمام الله.

وهذا الخوف العميق من رجلٍ بشّره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة بنفسه، وسمّاه الصدّيق، وجعله أول الخلفاء الراشدين، درسٌ بالغ الأثر يستحق أن يُستوقف عنده طويلاً: أن اليقين بالمصير الحسن، مهما كان قوياً وموثقاً بنص نبوي صريح لا يجب أن يُذهب خشية القلب من التقصير أو يُورث غروراً بالمنزلة؛ بل العكس هو الصحيح تماماً: كلما ازداد الإيمان في القلب، ازدادت هذه الخشية رهافةً وحساسية، لأن المؤمن الحق يرى في كل نعمةٍ أعطيها مسؤوليةً إضافية لا سبباً للاطمئنان والاسترخاء.

الفصل السابع

الرحيل الهادئ — زهده ووفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. الخليفة الذي أراد أن يستمر تاجراً

حين تولى أبو بكر الخلافة، وأصبح المسؤول الأول عن أمة كاملة تمتد رقعتها عبر الجزيرة العربية، خرج في الصباح التالي كعادته اليومية منذ عشرات السنين إلى السوق يتجر ليقتات من كسب يده، وكأن شيئاً لم يتغير في حياته رغم هذا المنصب العظيم الذي آل إليه. فقابله عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح في طريقه، وقالا له بلهجةٍ حازمة: يا خليفة رسول الله، إن شؤون الخلافة وأعباءها الجسيمة لن تدعك وقتاً كافياً للتفرغ للتجارة كما كنت تفعل، ولا بد أن يُفرض لك رزقٌ معلوم من بيت المال يكفيك ويكفي أهلك دون أن ينشغل بالك عن رعاية أمر المسلمين.

ولما احتُضر بعد سنتين من خلافته المرهقة، وشعر بدنو أجله، استدعى ابنته عائشة أم المؤمنين وأمرها أن تُحصي بدقة كل ما أخذه من بيت المال طوال فترة خلافته كاملة، فوجدته قد أخذ أقل بكثير مما يكفي أدنى مستوى من المعيشة اللائقة لرجلٍ في مكانته، فأمر رحمه الله أن تُردّ إلى بيت المال أرضٌ كانت باسمه وخادمٌ واحد كان يخدمه في بيته، تطهراً كاملاً من كل درهمٍ لم يكن يستحقه بيقينٍ قاطع، ولو كان الشك في استحقاقه يسيراً لا يكاد يُذكر. وهذا الحرص الدقيق، من رجلٍ على فراش موته لا يملك وقتاً طويلاً للتفكير في تفاصيل مالية صغيرة، يكشف عمق يقينه بأن الحساب يوم القيامة سيكون على القليل والكثير سواء بسواء.

◆ ٢. آخر وصية

حين اشتد به المرض في أيامه الأخيرة، واستيقن أن أجله قد اقترب، استشار كبار الصحابة في مَن يستخلفه من بعده على أمر هذه الأمة الفتية التي لا تزال في طور التكوين والتوسع، فأشار عليه أكثرهم باستخلاف عمر بن الخطاب رغم معرفتهم جميعاً بشدته المعروفة وحزمه الذي قد يخشاه البعض، لأنهم أدركوا بفراستهم أن الأمة تحتاج بعد رحيل الرحمة اللينة التي مثّلها أبو بكر إلى عدلٍ صارمٍ لا يلين أمام مصلحة، ولا يحابي فيه قريباً على بعيد. فكتب عهده لعمر بخط يده، وقال في وصيته المؤثرة التي تكشف نيته الصافية في هذا الاختيار الخطير: 'اللهم إني أردت بذلك خيرهم لهم، ولم آلُهم نُصحاً'، أي لم أدّخر جهداً في النصح لهذه الأمة باختياري هذا.

◆ ٣. الرحيل

توفي أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه بعد نحو سنتين وأشهر قليلة من خلافته المليئة بالأحداث الجسام التي حفظت الدين من الانهيار في أخطر مرحلة من مراحله، ودُفن إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة، كما كان يتمنى ويوصي به قبل وفاته، ليكون بذلك أقرب الناس إلى صاحبه في الحياة الدنيا، وأقربهم إليه جسداً في مثواه الأخير تحت التراب، وكأن القدر أراد أن يُتمّم هذه الصحبة الفريدة حتى بعد الموت.

«ما راجعت أبا بكر في أمرٍ فوجدته إلا وقد سبقني إليه بخيرٍ منه» — من كلام عمر بن الخطاب في صاحبه.

بهذا يُختم الباب الأول من هذا الكتاب، لينتقل القارئ إلى سيرة صاحبه في الخلافة والعدل: عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

الباب الثاني

عمر الفاروق

من جاهليةٍ قاسية، إلى فاروقٍ عادل، إلى شهادةٍ في المحراب

الفصل الأول

قبل الفجر — عمر في الجاهلية

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب والنشأة

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى، من بني عدي، أحد بطون قريش التي تولت السفارة في الجاهلية وموازنة النزاعات بين القبائل. وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة تقريباً، في بيتٍ لم يكن من أثرى بيوت مكة، لكنه كان بيت مكانة ونسب يُعتد به. وقد نشأ عمر تحت يد أبٍ عُرف بالشدة والقسوة الشديدتين، الخطاب بن نُفيل، فكان يُشغّل ابنه في رعي الإبل بمنطقة يقال لها الضجنان بعيداً عن مكة، ويُحمّله من المشقة والعناء ما لا يُطاق لصبيٍّ في سنّه، دون رحمةٍ لصغر سنه أو تعبه.

وحين تذكّر عمر ذلك لاحقاً في أوج عزّه خليفةً للمسلمين تُفتح على يديه الأمصار وتُجبى إليه خزائن الدنيا، لم ينسَ تلك الأيام القاسية من طفولته، بل كان يقول لنفسه أحياناً وهو يستعرض الجيوش والغنائم المتدفقة من كل جهة، في لحظاتِ محاسبةٍ ذاتية عميقة يندر أن يمارسها حاكمٌ في أوج سلطانه: 'كنت أرعى إبل الخطاب بالضجنان في مدرعة صوف، وكان فظاً غليظاً يتعبني إن أنا نسيت، ويضربني إن قصّرت ثم أصبحت لا إله غيره بيني وبينه، فسبحان مَن يُغيّر ولا يتغيّر'. وفي هذا الاعتراف الذي لا يخلو من ألمٍ ظاهر حتى بعد عقودٍ طويلة من تلك التجربة، مفتاحٌ نفسي عميق لفهم شخصية عمر بأكملها: أن قسوة الأب المبكرة صنعت في الابن جلداً استثنائياً على المشقة والصبر عليها، وأن الشدة التي مارسها لاحقاً على نفسه وعلى ولاته وعلى الأمة بأسرها لم تكن غريبة عليه أو مصطنعة، بل كانت اللغة النفسية الوحيدة التي أتقنها وتشرّبها منذ نعومة أظفاره.

◆ ٢. مكانته بين قريش: المصارع والسفير والكاتب

لم يكن عمر رجلاً عادياً في محيطه الاجتماعي؛ فقد اشتهر بين شباب قريش بالفروسية والمصارعة، حتى كان يُذكر من أبطال العرب المرموقين في أسواق عكاظ التي كانت أشبه بساحة تنافسٍ سنوية تُقاس فيها مكانة الرجال بشجاعتهم وقوتهم البدنية. وامتهن التجارة، فكانت له رحلاته المتكررة إلى الشام واليمن، يخالط فيها أهل الحضر ويتعلم من عوائدهم

وأساليبهم في التجارة والإدارة، وهي خبرةٌ ستنفعه لاحقاً بشكلٍ مباشر حين يتولى إدارة دولةٍ تمتد من الشام إلى فارس.

والأهم من ذلك أنه كان يعرف القراءة والكتابة، وهذه مَلَكة نادرة جداً في مجتمعٍ كانت الأمية فيه هي الأصل الغالب لا الاستثناء، حتى قيل إن عدد مَن يُحسنون الكتابة في قريش كلها لم يتجاوز عدداً يُحصى على أصابع اليدين تقريباً. ولأجل هذا الجمع النادر بين الفصاحة، والحزم، والمعرفة بأنساب القبائل وأخبارها ومنازلها ومفاخرها، كانت قريش تختاره سفيراً لها في أخطر المهمات الدبلوماسية: فإن وقعت مفاخرة بين القبائل أرسلته ليُنافح عنها بلسانه الحاد وحجته القوية، وإن أرادوا عقد حِلفٍ أو إعلان حربٍ كان عمر مبعوثهم المفضل الذي يثقون بقدرته على تمثيلهم أمام الغرباء دون تنازل أو ضعف.

وهذا الدور بالذات — دور السفير الذي يحمل كلام قومه ويمثلهم أمام الغرباء بكل حزم وثبات — هو تدريبٌ مبكر، وإن كان في خدمة الباطل حينها، على الحزم في الكلمة والثبات في الموقف مهما اشتدت الضغوط؛ وهي ملَكةٌ سينقلها عمر لاحقاً كاملةً غير منقوصة إلى خدمة الحق، دون أن تتغير طبيعتها الأساسية قيد أنملة، بل تتغير وجهتها فقط من خدمة أصنام قريش إلى خدمة توحيد الله.

◆ ٣. ظلمة لم يمحها إلا الإسلام: مأساة الوأد

من أشد المشاهد إيلاماً وأكثرها كشفاً لعمق التحول الذي طرأ على عمر لاحقاً، ما رواه هو بنفسه بعد أن أسلم وتغيّر قلبه كلياً، حين سُئل عن أشد ما فعله في جاهليته من أفعالٍ يندم عليها، فبكى بكاءً شديداً هزّ مَن حوله، وحدّث أنه دفن ابنته وهي حية، بحسب عادة بعض العرب الجاهلية في وأد البنات خشية العار المتوهم أو الفقر المستقبلي، وأنها كانت وهو يحفر قبرها بيديه تمسح التراب عن لحيته بيدها الصغيرة البريئة دون أن تعلم أنه يحفر لها قبرها هي بالذات، ظانّةً أنها تساعد أباها في عمل عادي.

هذه الرواية، على قسوتها البالغة التي يصعب على القلب تحمّلها، ليست مذكورة هنا للتشهير بعمر أو التنقيص من قدره، بل لأنها المفتاح الحقيقي الأعمق لفهم عمق التحول الذي سيحدث لاحقاً في شخصيته بأكملها: فالرجل الذي بكى وهو خليفة المسلمين يملك زمام أعظم دولة في زمانه على ذكرى فعلته تلك القديمة، ليس هو نفسه الذي ارتكبها يوماً بقلبٍ بارد لا يأبه؛ فقد انصهر ذلك القلب القاشي كلياً في نار الإيمان الصادق حتى صار من أرقّ الناس قلباً عند سماع آيات القرآن، يبكي حتى يُسمع نشيجه من خلف الصفوف في الصلاة. وهذا أعظم شاهدٍ ممكن

على أن الإسلام لا يُصلح الأفعال الظاهرة فحسب، بل يُعيد تشكيل الضمير الإنساني من جذوره العميقة، فيحوّل القاشي إلى رقيق، والباكي على قسوته إلى رحيمٍ يبكي رحمةً بالآخرين.

«لقد كنت في الجاهلية أعبد صنماً من التمر، فإذا جعت أكلته» — هكذا وصف عمر بنفسه ظلام تلك المرحلة، ليكون تباين الحال بعد الإسلام أشد وضوحاً.

◆ ٤. الخصم الأول للدعوة

حين ظهرت الدعوة الإسلامية في مكة، كان عمر من أشد المتصدين لها بلا هوادة لا عن قسوةٍ فطرية خالصة بل عن يقينٍ خاطئ راسخ في ذهنه بأن هذا الدين الجديد يهدد نظام قريش الاجتماعي والديني بأكمله الذي نشأ عمر يحميه بكل ما أوتي من قوةٍ وحماس. آذى مَن أسلم من قومه وعشيرته دون تردد، ولم يكن يرى في ذلك تناقضاً أخلاقياً يستحق التوقف عنده، بل واجباً دينياً تجاه آلهة آبائه التي يعتقد أنها تستحق الدفاع عنها بأي ثمن. وهذه الحدّة نفسها بكل طاقتها الكامنة، حين انقلبت بعد سنوات قلائل من إسلامه انقلاباً كاملاً، صارت درعاً حصيناً للمستضعفين من المسلمين بدل أن تكون سوطاً يُشهر عليهم؛ وفي هذا الانقلاب الكامل في وجهة الطاقة النفسية نفسها لا في جوهرها، تكمن كل حكمة القصة التي نرويها في هذا الكتاب.

الفصل الثاني

عاصفة في قلب حجري — إسلامه

۞ ۞ ۞

◆ ١. الرجل قبل اللحظة

لكل نفسٍ عظيمة، قبل أن تستدير نحو الحق استدارةً كاملة، تاريخٌ طويل من القسوة تبرر به لنفسها موقعها من العالم وتُقنع نفسها بصواب مسارها. وعمر بن الخطاب، قبل أن يصبح 'الفاروق' الذي فرّق الله به بين الحق والباطل تفريقاً واضحاً لا لبس فيه، لم يكن رجلاً هيّناً يُستدرج إلى الإيمان بيسر الحجة العقلية أو رقة الوجدان العاطفي؛ كان صخرة قريش الصلبة التي لا تلين، وسيفها المسلول على كل صوتٍ جديد يهدد نظامها القديم المتوارث.

خرج عمر ذلك الصباح المشهود ومعه سيفه المسلول لا ليجادل أو يناقش بل ليقتل مباشرة دون تردد. أخبروه أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه مجتمعون سراً في دار عند جبل الصفا، فمضى إليهم بخطى مَن حسم أمره تماماً ولم يترك مجالاً للعدول، وفي داخله ذلك اليقين الكاذب الخادع الذي يمنحه الغضبُ الشديد لأصحابه دوماً: يقين أن العنف والقتل سيغلقان هذا الباب المفتوح للدعوة الجديدة إلى الأبد، وأن حسم الأمر بضربةٍ واحدة سينهي المشكلة من جذورها.

◆ ٢. اللحظة التي تنشق فيها النفس على نفسها

سأله رجلٌ من بني زهرة، اعترضه في الطريق دون سابق ترتيب: 'أين تغدو يا عمر؟'، فقال: 'أريد أن أقتل محمداً'. فقال له الرجل بنبرةٍ تحمل تحذيراً مبطناً: 'وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة إن قتلته؟'، مذكّراً إياه بالعواقب القبلية الوخيمة التي قد تنجم عن هذا الفعل من ثأرٍ يمتد لأجيال. فقال عمر، محاولاً استكشاف موقف هذا الرجل الغريب: 'ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك'. فقال الرجل، وقد قرر أن يكشف له الخبر الأصعب: 'أفلا أدلّك على العجب؟ إن أختك وختنك قد صبآ وتركا دينك الذي أنت عليه'.

لم تكن هذه مجرد معلومة عابرة يسمعها عمر ويمضي، بل كانت طعنةً مباشرة في المكان الذي بناه عمر حصناً منيعاً لكرامته الشخصية: بيته، عائلته، سلطته المفترضة على مَن حوله من أقرب الناس إليه بالدم. فجأةً لم يعد الأمر معركة خارجية بين رجلٍ ودين غريب يهدد قومه من الخارج، بل صار حرباً داخل داره هو بالذات، بل داخل صدره هو شخصياً، وهنا تبدأ المأساة النفسية الحقيقية التي يفهمها كل مَن قرأ في أعماق النفس البشرية وتناقضاتها: أن أعنف

الصراعات التي يخوضها الإنسان ليست بين إنسانٍ وآخر مختلف عنه، بل بين الإنسان ووجهه الحقيقي الذي لا يريد أن يراه أو يعترف به.

اتجه إلى بيت أخته فاطمة بخطى غاضبة متسارعة، وسمع من خلف الباب المغلق صوت تلاوةٍ هادئة رخيمة، صوتاً لا يشبه ضجيج الشارع الصاخب الذي أتى منه للتو. فلما دخل عنوةً، وضربَ بلا رحمة، وأدمى وجه أخته دون أن يتردد ثم رأى الدم الأحمر ينزّ من الجرح على وجهها الأنثوي البريء، حدث ما لم يُخطط له مطلقاً ولم يتوقعه: فتور مفاجئ اجتاح جسده كله، كأن يداً غير مرئية أوقفت ذراعه المرفوعة في الهواء بقوةٍ خفية لا يملك دفعها. رأى عمر في دم أخته انعكاس يده هو، صورته الحقيقية العارية من كل تبرير، ولأول مرة في حياته، ارتجف يقينه الراسخ الذي بناه طوال سنين.

طلب أن يقرأ الصحيفة التي كانت معهم في تلك اللحظة، وفيها آيات مكتوبة من سورة طه. وحين أخذها، بعد أن اغتسل بأمر أخته تعظيماً للقرآن كما اشترطت عليه، وقرأ بصوتٍ بدأ يرتجف: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾، شعر أن كلاماً لا يشبه كلام البشر على الإطلاق يخاطبه هو تحديداً بالذات لا الناس عموماً كما كان يظن سابقاً. هنا تنكشف حكمة القدر العميقة في اختيار الآيات: أن الآيات التي طالعها لم تكن آيات وعيدٍ وتهديد كما توقع، بل آيات رحمةٍ خالصة لرجلٍ أنهكه — من حيث لا يدري هو نفسه — عناده الطويل وصراعه الداخلي المكتوم.

◆ ٣. من الغضب إلى الاستسلام

ما الذي يجعل قلباً قاسياً يتحول في ساعة واحدة فقط من إرادة القتل الصريحة إلى إرادة السجود الكامل؟ الجواب ليس معجزة خارقة تُلغي إرادة الإنسان وحريته في الاختيار، بل هو تناغمٌ عجيب بالغ الدقة بين نعمة التوفيق الإلهي من جهة، وبين استعداد كامنٍ عميق في نفس عمر نفسه لم يكن يعرفه هو شخصياً من قبل: صدقه المطلق مع ذاته الذي لا يقبل المواربة حتى مع نفسه. فعمر، رغم عداوته الشديدة الظاهرة للدعوة، لم يكن منافقاً يعرف الحق في قرارة نفسه ويجحده علانية كما فعل أبو جهل، بل كان رجلاً يبحث بصدقٍ، وإن لم يشعر بذلك، عن يقينٍ يملأ فراغاً عميقاً في داخله، فلما وجد في القرآن ما يخاطب هذا الفراغ بالذات مخاطبة مباشرة لا تحتمل التأويل، لم يملك إلا الاستسلام الكامل لهذا الصوت الذي عرف صدقه من أول لحظة.

مضى مباشرة إلى دار الأرقم، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مجتمعين في سرية، فلما رآه داخلاً عليهم بسيفه المسلول لا يزال في يده، هبّ القوم مذعورين خائفين على حياة نبيهم، وقال بعضهم بصوتٍ خافت: هذا عمر، فلنستعد. لكن النبي صلى الله عليه وسلم، بفراسته النبوية التي لا تُخطئ جوهر النفوس مهما بدت قاسية من الخارج، لم يرَ في عمر إلا رجلاً أنهكته المعركة الداخلية مع نفسه، فأذن له بالدخول دون تردد، وأخذ بمجامع ثوبه بيده الشريفة وقال بحزمٍ: 'ما جاء بك يا ابن الخطاب؟'. فقال عمر، وقد سقطت كل أقنعته الظاهرية دفعة واحدة: 'جئت لأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله'. فكبّر أهل الدار تكبيرة عالية سُمعت في شعاب مكة كلها، إعلاناً عن نصرٍ عظيم تحقق في تلك اللحظة بالذات.

«اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» — فاستجاب الله بعمر.

الفصل الثالث

من الظل إلى الصدارة — حياته مع النبي صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. الهجرة العلنية

هاجر المسلمون إلى المدينة متسللين خشية بطش قريش الذي كان يترصد كل مسلمٍ يحاول الفرار بدينه، إلا عمر، فقد كان استثناءً فريداً في طريقة هجرته. فحين عزم على الهجرة، لم يتسلل خفيةً كما فعل غيره، بل تقلّد سيفه علانية، وتوشّح قوسه، وانتصب واقفاً في نادي قريش، وهو المكان الذي يجتمع فيه أشرافها للتشاور، أمام أعينهم مباشرة، وقال بصوتٍ جهوري لا يتردد فيه خوف قط: 'من أراد أن تثكله أمه، ويُيتّم ولده، ويُرمّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي'. لم يخرج أحدٌ خلفه ليتحداه رغم هذا التحدي الصريح المعلن، فمضى إلى المدينة آمناً مطمئناً وهو يعلم أن هيبته وحدها كافية لردع أي معترض.

◆ ٢. بدر: أول اختبار للولاء المطلق

في غزوة بدر، أول مواجهة عسكرية كبرى بين المسلمين وقريش، حين أُسر سبعون رجلاً من صناديد المشركين، استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في مصيرهم. فأشار أبو بكر بالفداء المالي رحمةً بهم وطمعاً في هدايتهم مستقبلاً، بينما رأى عمر رأياً مختلفاً تماماً: أن يُقتلوا جميعاً لأنهم أئمة الكفر وقادته الذين آذوا المستضعفين من المسلمين سنين طويلة. حين نزل الوحي مؤيداً جانب الرحمة والفداء الذي رآه أبو بكر، وعاتب في الوقت نفسه على التسرع في قبول الفداء قبل استئصال شأفة الكفر تماماً، بكى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر تأثراً بهذا العتاب الإلهي، وقال عمر معلقاً على هذا الموقف: 'ما نجا منّا إلا من قلّ'.

وما يستحق التأمل هنا أن عمر لم يغضب أو يعاند حين خُولف رأيه بنصٍّ صريح من الوحي، بل تراجع فوراً بكل تسليمٍ وطواعية، لأن ولاءه الحقيقي لم يكن يوماً لرأيه الشخصي مهما بدا له صواباً، بل للحق أينما وُجد ومهما خالف اجتهاده الخاص. وهذا النضج المبكر في التعامل مع مخالفة الرأي، من رجلٍ عُرف بشدة تمسكه بآرائه في مواقف أخرى كثيرة، درسٌ عميق في التفريق بين الثقة بالنفس المفيدة والعناد الضار الذي يرفض الحق حين يظهر بوضوح.

◆ ٣. أُحد والخندق

في غزوة أُحد، حين شاعت صيحةٌ مرعبة بين صفوف المسلمين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قُتل، وتزلزلت الصفوف كلها في فوضى عارمة يصعب تخيل هولها، كان عمر ممن ثبت وسط هذه الفوضى العامة، ولحظة تيقنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حيّاً يُرزق، عاد إليه صلابته المعروفة يُنظّم الصفوف المبعثرة من جديد بحزمٍ وسرعة. وفي غزوة الخندق، حين حفر المسلمون خندقهم الطويل حول المدينة في بردٍ قارس وجوعٍ شديدين استمرا أياماً طويلة، كان عمر ممن يعمل بيده مباشرة لا يكتفي بالإشراف من بعيد كما قد يفعل القادة عادة.

وقد فاتته صلاة العصر يوماً من شدة انشغاله بالقتال المحتدم حتى قضاها بعد الغروب متأخراً، فحزن لذلك حزناً شديداً لا يتناسب في ظاهره مع عذره الواضح في القتال، وهذا الحرص الدقيق على العبادة وسط أوجاع الحرب وشدائدها يكشف أن انضباط عمر لم يكن ينصرف إلى شؤون الدنيا وحدها من قتالٍ وسياسة، بل كان أشد ما يكون حرصاً وقلقاً تجاه حق الله عليه، حتى في أحلك ظروف الحرب وأشدها إرهاقاً.

◆ ٤. الحديبية

حين قبل النبي صلى الله عليه وسلم شروطاً بدت في ظاهرها مجحفة بحق المسلمين في صلح الحديبية، من مثل الرجوع دون أداء العمرة هذا العام رغم قربهم الشديد من مكة، لم يتمالك عمر نفسه من الاعتراض، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة وقال بانفعالٍ ظاهر: 'ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فعلامَ نُعطي الدَّنِيّة في ديننا؟'. فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بثقةٍ هادئة لا تتزعزع: 'إني رسول الله، ولن يُضيّعني الله أبداً'. ولم يمض إلا وقتٌ قصير نسبياً حتى تبيّن للجميع أن ذلك الصلح الذي بدا مجحفاً كان في الحقيقة أعظم فتحٍ سياشي في تاريخ الدعوة الإسلامية كلها، إذ فتح الباب لدخول قبائل كاملة في الإسلام سلماً دون قتال.

وما يستحق التأمل هنا ليس اعتراض عمر بحد ذاته، فهو اعتراضٌ نابع من غيرةٍ صادقة على الدين لا من شكٍّ في صدق النبوة، بل ما فعله عمر بعد ذلك من ندمٍ عميق مستمر: فقد ظل يقول عن نفسه في سنواتٍ لاحقة: 'فما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ'. هذا الندم العميق المستمر على مجرد اعتراضٍ لفظي صادرٍ عن غيرة دينية صادقة لا عن شكٍّ حقيقي في النبوة، يكشف عن ضميرٍ يقظ حساس لا يهدأ إذا شعر صاحبه أنه تجاوز حدّه ولو بكلمةٍ واحدة قالها في لحظة انفعال.

◆ ٥. فتح مكة وتبوك

شهد عمر فتح مكة، تلك المدينة التي أخرجته يوماً خائفاً على دينه هارباً بحياته ثم عاد إليها فاتحاً آمناً معتزّاً برأس مرفوعة، في تحوّلٍ رمزي يختصر مسيرة الدعوة كلها من الضعف إلى القوة. وفي غزوة تبوك، حين حثّ النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة على الصدقة والتجهيز لمواجهة الروم في وقتٍ عصيب، أتى أبو بكر بماله كله دون استثناء، وأتى عمر بنصف ماله، وهو يظن في تلك اللحظة أنه سيسبق أبا بكر لأول مرة في تاريخ منافستهما الطويلة على الخير.

فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: 'ما أبقيت لأهلك؟'، فقال عمر بثقة: 'أبقيت لهم مثله'. فلما علم أن أبا بكر حين سُئل السؤال نفسه أجاب: 'أبقيت لهم الله ورسوله'، قال عمر كلمته المشهورة التي تكشف تواضعاً نادراً عند رجلٍ بمكانته :'لا أُسابقك إلى شيء أبداً'. وفي هذا الاعتراف طرافةٌ إنسانية عميقة تكشف تواضعاً نادراً: أن يعترف رجلٌ بمكانة عمر ومنزلته العالية أن هناك مَن يفوقه في القرب من الله ودرجة التوكل عليه، دون حسدٍ يعتمل في صدره ولا مكابرة يتشبث بها.

◆ ٦. الحجر الأسود

ومن أوضح المواقف التي تكشف عمق فهم عمر لجوهر الدين الحقيقي بعيداً عن ظواهر الطقوس، وقوفه أمام الحجر الأسود في إحدى حجاته، حين قبّله كما هي السنة النبوية، وقال بصوتٍ يسمعه من حوله بوضوح تام: 'إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبّلك ما قبّلتك'. هذه الكلمة، الصادرة من رجلٍ يملك أعلى درجات السلطة الدينية والزمنية في زمانه، درسٌ خالد باقٍ عبر الأجيال في التفريق الدقيق بين اتّباع السنة النبوية الخالص من جهة، وبين الوقوع في تقديس الأشياء المادية لذاتها من جهة أخرى؛ فعمر لم يمنعه مقامه العالي ولا هيبته المعروفة من أن يُعلن للناس صراحة أن تعظيمه للحجر ليس لذاته أو لقوةٍ خفية فيه، بل هو اتّباعٌ محض لفعل النبي صلى الله عليه وسلم، حماية للتوحيد الخالص من أن ينزلق ولو بخطوةٍ واحدة إلى أي شكلٍ من أشكال الوثنية المُقنّعة بثوب التعظيم الديني.

الفصل الرابع

الأمانة الثقيلة — وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتولّي الخلافة

۞ ۞ ۞

◆ ١. الإنكار الذي لا يحتمله عقل

حين توفي النبي صلى الله عليه وسلم، في اللحظة التي بدت للجميع أثقل لحظات التاريخ الإسلامي على الإطلاق، وقف عمر ينكر الخبر بعنفٍ شديد يشبه إنكاره الأول القديم للرسالة نفسها قبل إسلامه، وقال بصوتٍ عالٍ يخاطب الجموع المذهولة: 'والله ما مات، وليرجعنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليقطعنّ أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أنه مات'. هذا المشهد، بمنطق النفس البشرية العميق، ليس تناقضاً مع صلابة عمر المعروفة كما قد يظن للوهلة الأولى، بل هو تجليها الأعمق: فالرجل الذي بنى كل يقينه واستقراره النفسي طوال سنين على وجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم حياً يُرشدهم، لم يكن إنكاره جهلاً بحقيقة الموت أو عدم تصديقٍ ساذج، بل كان رفضاً وجودياً عميقاً لفراغٍ مرعب لم يكن مستعداً نفسياً لملئه بأي حال.

لكن أبا بكر، بقلبٍ أكثر هدوءاً وثباتاً في تلك اللحظة العصيبة، وقف أمام الجموع وقال بصوتٍ هادئ واثق: 'من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت'، وتلا الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. يقول عمر عن نفسه واصفاً تلك اللحظة الفارقة: 'فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت، حتى وقعت إلى الأرض، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات'. وفي هذا الموقف تحديداً نرى الفارق الدقيق بين شخصيتين عظيمتين تكاملتا في تلك اللحظة الحرجة: عمر بقوته العاطفية الجارفة التي تعبّر عن عمق حبه، وأبو بكر بثباته الإيماني الهادئ الذي يعرف كيف يواجه الحقيقة الصعبة بلا انهيار.

◆ ٢. سقيفة بني ساعدة

وفي اليوم نفسه المشحون بالحزن والارتباك، بينما كان جسد النبي صلى الله عليه وسلم لم يُدفن بعد، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون فيمن يخلفه على أمر الأمة، خشية أن يترك الفراغ السياسي المفاجئ باباً للفوضى. فأسرع عمر وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح إليهم فور علمهم بالاجتماع، وجرى نقاشٌ حاسم استمر ساعات طويلة انتهى بمبايعة أبي بكر خليفةً للمسلمين. وكان عمر أول مَن بايع، بيدٍ لم تتردد لحظة واحدة رغم أنه — بحكم مكانته وقوة

شخصيته المعروفة للجميع — كان يمكن أن يطمع فيما طمع فيه غيره من المنصب الجديد. لكن عمر أدرك بحكمةٍ نادرة أن الأمانة التي حملها النبي صلى الله عليه وسلم لا تُقاس بالقوة الشخصية وحدها، بل بالصدق مع الجماعة ومصلحتها العليا، فبادر إلى تثبيت الأمر لأولى الناس به وأقدمهم في الإسلام، تاركاً لنفسه دوراً كان يليق به أكثر من أي منصب رسمي: دور الحارس الأمين اليقظ لدولةٍ إسلامية وليدة لا تزال في أشد مراحلها هشاشة.

◆ ٣. عهدٌ إلى عمر

حين حضرت أبا بكر الوفاة بعد سنتين تقريباً من خلافته المرهقة، استشار كبار الصحابة في استخلاف عمر من بعده على أمر هذه الأمة الفتية، فتردد بعضهم في البداية، خشية شدته المعروفة للجميع وحزمه الذي قد يخشاه العامة أكثر من رحمة أبي بكر. لكن أبا بكر، بخبرته العميقة برجاله المتراكمة عبر سنين الصحبة الطويلة، قال كلمةً تكشف فهماً نادراً بالغ العمق لطبيعة السلطة وتأثيرها على النفوس: 'إنما كانت شدته لأني كنت ليّناً، فإذا أفضى إليه الأمر ترك كثيراً مما كان عليه'. وقد صدق حدسه الثاقب تماماً كما توقع: فعمر الخليفة لم يكن كعمر قبل الخلافة في كل تفاصيله؛ إذ حين انتقلت المسؤولية الكاملة من الفرد الواحد إلى الأمة بأسرها، انصهرت شدته الشخصية في قالبٍ جديد أكثر نضجاً، فصارت عدلاً صارماً لا يحابي فيه قريباً ولا واليّاً مهما علت مكانته، بدل أن تكون غضباً شخصياً عابراً كما كانت أيام جاهليته القديمة.

«إنما كانت شدته لأني كنت ليّناً» — أبو بكر الصديق، في وصف فراسته بصاحبه.

الفصل الخامس

خليفة الأرض المفتوحة — الفتوح والبناء

۞ ۞ ۞

◆ ١. اتساع لم تحتمله الخيمة الواحدة

في عهد عمر، اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً هائلاً لم يشهد التاريخ البشري مثله في زمنٍ قصير نسبياً لا يتجاوز عشر سنوات: سقطت المدائن عاصمة الفرس الأسطورية التي كانت رمزاً لأعظم إمبراطورية في المشرق، وانكسر جيش الروم العظيم في معركة اليرموك الفاصلة، وفُتحت الشام ومصر بأكملهما. لكن ما يستحق التأمل العميق ليس اتساع الأرض بقدر ما هو أسلوب عمر الفريد في إدارتها؛ فبينما كانت الإمبراطوريات القديمة عادةً تُدار من مركزٍ يستمتع حكامها بمظاهر المجد والأبهة، كان عمر يدير أعظم دولةٍ في زمانه من بيتٍ متواضع من طين، ويُحاسب ولاته على الفتوحات بنفس الصرامة الدقيقة التي يُحاسب بها نفسه هو شخصياً. لم تُبهره القصور الفخمة التي فُتحت أمام جيوشه، لأن قلبه الذي كسرته آية واحدة في صحيفة قديمة، لم يعد قلباً تُغريه زخارف الدنيا الزائلة مهما بلغت فخامتها.

◆ ٢. دخول القدس

حين فُتحت بيت المقدس بعد حصارٍ طويل، اشترط أهلها المسيحيون ألا يُسلّموا المدينة المقدسة إلا لعمر نفسه شخصياً، ثقةً منهم بعدله المعروف حتى قبل لقائه. فقدم عمر من المدينة راكباً على بعير متواضع، يتناوب ركوبه مع خادمه بالتساوي دون تمييز، حتى إذا حانت نوبة الخادم نزل عمر الخليفة عن البعير ومشى بقدميه ليركب الخادم مكانه. ولما اقتربوا من القدس، وكان الثوب الذي يلبسه مرقّعاً متسخاً من طول السفر، أشار عليه أبو عبيدة بن الجراح أن يستبدله بثوبٍ نظيف ليدخل بمظهر يليق بهيبة الفتح أمام أعيان الروم وأشرافهم، فرفض عمر رفضاً قاطعاً، وقال كلمة تختصر فلسفته الكاملة في الحكم: 'إن كنا نطلب العزة بغير الإسلام، أذلّنا الله'.

فدخل القدس على حاله المتواضع دون أي تجميل، وأعطى أهلها عهداً مكتوباً بالأمان الكامل على أنفسهم وكنائسهم وصلبانهم لا يُكرَه أحدٌ منهم على تغيير دينه بأي شكل من الأشكال. هذا المشهد، الذي وقف أمامه مؤرخون من كل ملة ودين مندهشين عبر القرون، هو تجسيد حي بالغ الوضوح لمعنى لقب الفاروق: أن السلطة عند عمر لم تكن يوماً أداة تعالٍ على الآخرين أو

استعراض للقوة، بل أمانةً ثقيلة يخشى دوماً أن تُحاسبه عليها حتى الحصاة الصغيرة الملقاة في الطريق.

◆ ٣. الدواوين والقضاء

لم تكن عبقرية عمر الإدارية في الفتح العسكري وحده، بل فيما فعله بعد الفتح، وهو الجزء الأصعب دائماً في بناء الدول: إذ أنشأ نظام 'الدواوين' المبتكر لتسجيل أسماء المقاتلين بدقة وتوزيع العطاء عليهم من بيت المال بحسب سابقتهم في الإسلام وبلائهم فيه، وهو أول تنظيمٍ إداري مالي منهجي من نوعه في تاريخ الدولة الإسلامية بأكملها. كما فصل القضاء تماماً عن الولاية العامة، فعيّن قضاةً مستقلين في الأمصار المختلفة لا يتبعون سلطة الوالي المباشرة، وكتب لأبي موسى الأشعري رسالته الشهيرة التي أصبحت مرجعاً قانونياً عبر العصور في أصول القضاء العادل، وفيها قوله البليغ: 'الفهم الفهم فيما يُختلج في صدرك مما لم يبلغك في كتابٍ ولا سنة... والبيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر'. وهذه الرسالة تُعدّ إلى اليوم من أقدم النصوص التاريخية التي تؤسس بوضوح لمبادئ العدالة الإجرائية التي لا تزال أنظمة القضاء الحديثة تعتمد عليها.

◆ ٤. التقويم الهجري والأمصار

لما كثرت الرسائل والعهود المتبادلة بين الولاة في الأقاليم المترامية، وتعذّر ضبط تواريخها بدقة نظراً لاختلاف الأنظمة الزمنية المستخدمة، اقترح بعض الصحابة على عمر أن يضع للمسلمين تقويماً موحداً يُنظّم شؤون الدولة الفتية. فاستشار كبار الصحابة في هذا الأمر، فأشار عليه علي بن أبي طالب برأيٍ حكيم أن يكون المبدأ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فرأى عمر في هذا الاقتراح حكمةً بالغة العمق: أن يبدأ حساب الأمة الجديدة من نقطة انتصار الدين على القهر والاضطهاد لا من مولد ملكٍ أو حادثة انتصارٍ عسكري كما كانت تفعل الأمم الأخرى في تقاويمها.

كما أسّس عمر مدنَ الكوفة والبصرة والفسطاط كحواضر جديدة استراتيجية تجمع الجند وتُدير الأقاليم المفتوحة حديثاً بكفاءة، وحفر خليجاً مائياً ضخماً يصل نهر النيل بالبحر الأحمر لنقل غلال مصر الوفيرة إلى الحجاز في زمن المجاعة الشديدة، عُرف هذا الخليج باسم 'خليج أمير المؤمنين' تخليداً لهذا الإنجاز الهندسي الاستراتيجي الذي أنقذ أرواحاً كثيرة من المجاعة.

مَن اتسعت له الدنيا كما اتسعت لعمر، ثم لم يتغيّر قلبه قيد أنملة، فذلك هو الزهد الحقيقي.

الفصل السادس

راعي الرعية — عدله وتواضعه

۞ ۞ ۞

◆ ١. الخليفة الذي يُحصي أنفاسه خوفاً من الظلم

كان عمر يطوف ليلاً متخفياً في أزقة المدينة المظلمة يتفقد أحوال الرعية بنفسه مباشرة لا يثق بتقارير الولاة وحدها مهما بدت مطمئنة، إيماناً منه بأن الحاكم الحقيقي يجب أن يرى بعينيه لا بعيون غيره. سمع ليلةً بكاء أطفالٍ جائعين من داخل خيمةٍ متهالكة على طرف المدينة، فاقترب متسللاً في الظلام، فوجد امرأةً فقيرة تُسكّت أولادها الجياع بوعدٍ كاذب مؤلم بأن الطعام على النار سينضج قريباً، بينما هي في الحقيقة المُرّة تُقلّب حجارةً صماء في القدر الفارغ تماماً لتُلهيهم حتى يناموا وهم جياع دون طعام حقيقي.

لم يكتفِ عمر بالتأثر العاطفي العابر كما قد يفعل غيره، بل حمل بنفسه شخصياً كيس دقيقٍ ثقيل من بيت المال على ظهره القوي، ورفض بإصرار أن يحمله عنه خادمه أسلم الذي عرض المساعدة، وقال له بجدية بالغة: 'أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟'ثم طبخ لهم الطعام بيده الخاصة حتى شبعوا تماماً، وجلس بجانبهم يراقب فرحهم البسيط بالطعام قبل أن ينصرف بهدوء دون أن يُعرّفهم بنفسه. هذا المشهد يكشف عمقاً نادراً في فهم معنى القيادة الحقيقية: أن عمر لم يكن يرى نفسه حاكماً يتفضل بالإحسان من علٍ، بل مسؤولاً مباشراً يخشى بصدق أن يُسأل يوم القيامة عن كل جوعةٍ لم يشبعها وهو قادر على إشباعها.

◆ ٢. 'من أين لك هذا؟': محاسبة الولاة

ابتكر عمر أسلوباً فريداً ومبتكراً لمراقبة ولاته من احتمالات الفساد المالي: كان يُحصي أموالهم بدقة عند توليتهم مباشرة قبل تسلمهم المنصب ثم يُقارنها بما لديهم فعلياً بعد انتهاء ولايتهم، فإن وجد زيادة غير مُبرِّرة بوضوح سألهم مباشرة بلا مجاملة: 'من أين لك هذا؟'، وقاسمهم أموالهم مع بيت المال إن لزم الأمر دون تهاون. وحين اتُّهم ابن الوالي عمرو بن العاص بضرب رجلٍ قبطي مصري دون حقٍّ واضح مستغلاً نفوذ أبيه، أحضر عمر الابن والأب معاً إلى المدينة رغم بُعد المسافة، وأعطى القبطي المظلوم السوط بيده ليقتصّ من ابن الوالي بنفسه أمام الجميع دون خوفٍ من العواقب، وقال لعمرو بن العاص كلمته الخالدة التي تُختصر بها فلسفته في العدل: 'متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟'.

◆ ٣. "لو عثرت بغلة في العراق"

من أبلغ ما قيل في وصف إحساس عمر العميق بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه قوله المشهور الذي يُروى عنه: "لو أن بغلةً عثرت في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها: لِمَ لم تُمهّد لها الطريق يا عمر؟". هذه العبارة، وإن بدت مبالغة ظاهرة للوهلة الأولى قد يستغربها البعض، تعكس تصوراً عميقاً بالغ الدقة لمعنى الحكم الرشيد: أن مسؤولية الحاكم الحقيقي لا تقف عند حدود العاصمة الآمنة أو أهل بلاطه المقربين، بل تمتد لتشمل أبعد بقعة نائية في أرضه الواسعة، وأدق تفاصيل معيشة أضعف الناس فيها وأقلهم شأناً في نظر الآخرين.

◆ ٤. الدرة وزمن الجدب

اشتهر عمر بدرّته المعروفة، وهي عصاه التي كانت أهيب عند الناس من سيف غيره من الحكام، لدرجة أن مجرد رؤيتها كانت تكفي لردع كثيرين عن مخالفة الأنظمة. لكنه كان يُحاسب بها نفسه وأهله قبل الرعية بكثير، تطبيقاً عملياً لمبدأ العدل الذي ينادي به. وفي عام الرمادة، وهو عام مجاعة شديدة ضربت الجزيرة العربية، حرّم على نفسه اللحم والسمن كلياً حتى يحيا الناس كما يحيون في ضنكهم وحرمانهم، فنحل جسمه القوي واسودّ لون وجهه من شدة الجوع الاختياري، وقال حين سُئل عن سبب ذلك: "وكيف أرثي للرعية إن لم أذق ما يذوقون؟"، مؤكداً بفعله لا بقوله فقط أن القيادة الحقيقية تعني المشاركة الفعلية في معاناة المحكومين لا مجرد التعاطف اللفظي البعيد عنهم.

الفصل السابع

مواقف خالدة من حياته

۞ ۞ ۞

◆ ١. الشيخ اليهودي المتسوّل

مرّ عمر يوماً في تجواله المعتاد بشيخٍ كبير في السن من أهل الذمة اليهود يتسوّل على أبواب الناس بضعفٍ ظاهر، فسأله عن حاله باهتمامٍ صادق، فأخبره الشيخ أنه يفعل ذلك مضطراً ليؤدي الجزية المفروضة عليه وقد أثقله الكبر والفقر معاً فلم يعد قادراً على العمل. فأخذه عمر مباشرة إلى بيته دون تردد، وأعطاه من ماله الخاص سخاءً ثم أمر فوراً بإسقاط الجزية عنه كلياً وفرض له راتباً ثابتاً ومستمراً من بيت المال يكفيه بقية حياته، وقال كلمته المشهورة التي تكشف عمق عدله: 'ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته وقوته أيام قدرته على العمل ثم تركناه محتاجاً عند هرمه وضعفه'، وأمر بأن يُعامَل كل مسنٍّ ضعيف من أهل الذمة بمثل هذه المعاملة الكريمة العادلة. وهذا الموقف يكشف بُعداً إنسانياً واسعاً في عدل عمر يتجاوز حدود الأمة الإسلامية نفسها إلى كل إنسانٍ يعيش تحت رعايته وحمايته، مهما اختلف دينه أو معتقده الشخصي عن دين الدولة.

◆ ٢. الراوي الذي طبّق ما روى على نفسه

روى عمر بنفسه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله'، تحذيراً بليغاً من مغبة الغلو في تعظيم الأشخاص ولو كانوا أنبياء مرسلين. وما يستحق التأمل العميق أن عمر لم يكتفِ بمجرد نقل هذا الحديث النبوي كرواية تُحفظ وتُروى، بل طبّقه على نفسه هو شخصياً تطبيقاً حرفياً صارماً؛ فحين بالغ بعض الشعراء والمادحين المتزلفين في الثناء عليه هو شخصياً طمعاً في عطاياه أو تقرباً منه، كان يزجرهم بشدة بالغة ويرفض ذلك المديح المبالغ فيه رفضاً قاطعاً لا يقبل المساومة، خشية أن يتسلل الغرور إلى قلبه من حيث لا يشعر.

وفي هذه الإشارة النبوية تحذيرٌ عميق من خطر الغلو في تعظيم الأشخاص مهما بلغت مكانتهم الدينية أو الدنيوية، حتى لا ينزلق الثناء المفرط تدريجياً إلى ما يشبه العبادة الخفية دون أن يشعر بها المرء. وهذه الحساسية المفرطة تجاه المديح الموجه إليه شخصياً، من رجلٍ يملك كل أسباب الغرور الممكنة بحكم سلطته الواسعة وانتصاراته المتتالية، تكشف وعياً نفسياً عميقاً بخطر الذات حين يُمدح صاحبها بلا حساب أو ضابط ديني يقيّد هذا المديح.

◆ ٣. أمير المؤمنين في ثوبٍ مرقّع

حين دخل عمر الشام فاتحاً منتصراً على رأس جيوشه الظافرة، خرج كبار القادة والأمراء المحليون والعسكريون يستقبلونه بأبّهةٍ رسمية فخمة تليق في ظنهم بخليفة أعظم دولةٍ في زمانه بأكمله، فوجدوه بدل ذلك يمشي متواضعاً على قدميه بنفسه يقود بعيره المتواضع بيده مباشرة، وثوبه القديم مرقّعٌ بقطعٍ من الجلد في عدة مواضع منه دون أي محاولة للتجميل أو المظهرية.

فذهلوا تماماً من هذا التناقض الصارخ بين اتساع الفتح العظيم الذي حققه وبساطة الفاتح الشخصية الزاهدة، حتى قال بعضهم معلقاً بإعجاب بالغ: هذه هي الهيبة الحقيقية النابعة من الداخل لا زخرف القصور الخارجي الزائل. وهذا المشهد المتكرر يتكرر في سيرة عمر بأكملها كخيطٍ واحد يربط كل تفاصيلها المتفرقة معاً: أن السلطة الواسعة عنده لم تكن يوماً مناسبةً للتفاخر الشخصي أو استعراض القوة، بل عبئاً ثقيلاً يُضاعف من حذره الدائم من الافتتان بزخارف الدنيا الزائلة مهما بلغت إغراءاتها.

الفصل الثامن

الطعنة في المحراب — الاستشهاد

۞ ۞ ۞

◆ ١. فجرٌ لم يكتمل

في صبيحة يومٍ من شهر ذي الحجة، وهو يوم بدا في بدايته كسائر الأيام العادية، وقف عمر بن الخطاب يؤم المسلمين في صلاة الفجر كعادته اليومية الثابتة، وحين كبّر وبدأ القراءة بصوته المعروف، انقضّ عليه فجأة أبو لؤلؤة المجوشي، وهو عبدٌ فارشي كان يحمل ضغينة شخصية قديمة، بخنجرٍ مسموم ذي حدّين مُعدّ خصيصاً لهذه الغاية، فطعنه ست طعنات متتالية بسرعة، إحداها تحت سرّته مباشرة أنفذت مقتله بلا شك. سقط عمر على الأرض متألماً، وسقط معه المسجد كله في صمتٍ ثقيل مرعب، وهو المسجد الذي طالما ملأه عمر بهيبته الطاغية طوال سنين حكمه.

وفي تلك اللحظة الحرجة بالذات، وقبل أن يعرف حتى مَن الذي طعنه أو لماذا، كان أول ما فكّر فيه عمر ليس نفسه المتألمة ولا جراحه النازفة، بل استمرار الصلاة التي بدأها للتو: أشار بيده إلى عبد الرحمن بن عوف القريب منه أن يتقدم فوراً ليُتم بالناس الصلاة، فلم تتوقف الجماعة عن أداء فريضتها رغم هول ما حدث، لأن عمر الذي بنى نظاماً كاملاً لا يقوم على شخصه وحده، أراد أن يُثبت حتى في لحظة موته المحتملة أن الدين أكبر بكثير من الرجل الواحد الذي يقوده، مهما بلغت أهميته.

◆ ٢. حوارٌ مع الموت لا يشبه غيره

حُمل عمر إلى بيته وهو ينزف دماً غزيراً، وقيل له مَن الذي طعنه، فحين عرف أنه عبدٌ أعجمي لا صاحب دينٍ معلن أو ثأر ديني ظاهر، قال بارتياحٍ غريب يتناقض ظاهرياً مع حالته المؤلمة: 'الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجلٍ يسجد لله سجدة'. في هذه الكلمة يتجلى شيءٌ عميق جداً من أعمق ما في النفس المؤمنة الصادقة: أن الألم الجسدي الشديد الذي كان يعانيه لم يشغله عن سؤالٍ أهم عنده بكثير وهو موقعه الحقيقي من هذا الدين حتى في أصعب لحظات موته وأشدها ألماً.

ثم أوصى بابنه عبد الله ألا يُنقل عن الشورى بعده إلا إلى ستة أشخاص رشّحهم بنفسه بدقة، رافضاً تماماً أن يستخلف شخصاً بعينه كما استخلفه أبو بكر من قبله، وقال موضحاً سبب هذا الاختيار

المختلف: 'إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني، أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني، رسول الله صلى الله عليه وسلم'. وفي هذا التواضع البالغ في اللحظة الأخيرة، بعد اثنتي عشرة سنة كاملة من الحكم الذي وسع رقعة الأرض الإسلامية بشكلٍ غير مسبوق، الدليل الأخير القاطع على أن السلطة الواسعة لم تُغيّر جوهر الرجل الذي انكسر يوماً بعيداً أمام آيةٍ بسيطة في صحيفة قديمة.

وأوصى أن يُدفن إلى جانب صاحبيه النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، إن أذنت له عائشة رضي الله عنها بذلك، قائلاً بتواضعٍ مؤثر: 'ما كان لي من حاجةٍ أهم من ذلك' ثم قال لابنه عبد الله موصياً إياه بصيغة الطلب المتواضعة: 'اذهب إلى أم المؤمنين عائشة، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب'، ولم يقل 'أمير المؤمنين' كما كان يُلقّب طوال سنين حكمه، تواضعاً بالغاً في آخر لحظة واعية من حياته الطويلة الحافلة.

◆ ٣. الشورى السداسية

رفض عمر أن يستخلف رجلاً بعينه كما فعل أبو بكر معه، وحصر الأمر بدلاً من ذلك في ستة نفرٍ من كبار الصحابة المُبشّرين صراحة بالجنة: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأمرهم بوضوح أن يختاروا من بينهم خليفةً خلال ثلاثة أيام فقط لا أكثر تجنباً لطول الفراغ السياسي، وأن يؤمّ الناس في تلك الأثناء المؤقتة صهيب الرومي، ليؤكد حتى في وصيته الأخيرة أن استمرار الجماعة المنظمة أهم بكثير من شخص بعينه مهما علت مكانته. وبعد تشاورٍ مستفيض ونزولٍ متبادل عن الترشح بين بعضهم، انعقد الاختيار النهائي على عثمان بن عفان بإجماعٍ تقريبي من الجميع.

الباب الثالث

عثمان بن عفان

ذو النّورين — الحياء الذي هابته الملائكة، والصبر الذي حقن الدماء

الفصل الأول

الحياء المجسَّد — نشأته وإسلامه

۞ ۞ ۞

◆ ١. تاجرٌ من بني أمية معروف بالحياء

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص، من بني أمية، أحد أعرق بطون قريش نسباً وأكثرها مالاً ونفوذاً تجارياً في مكة وما حولها. كان تاجراً موسراً، حسن الوجه إلى درجة لفتت أنظار قريش كلها، رقيق الخُلق بشكلٍ يميزه عن كثيرين من أقرانه، وقد اشتهر بصفةٍ نادرة جعلته يتفرد بين الصحابة جميعاً دون استثناء: الحياء الشديد الذي بلغ من عمقه أن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً في وصفٍ فريد لم يُطلق على غيره: 'ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟'، وذلك حين دخل عليه وهو مستلقٍ على فراشه كاشفاً عن ساقه في وضعٍ عادي داخل بيته، فما إن استأذن عثمان بالدخول حتى جلس النبي صلى الله عليه وسلم فوراً وسوّى ثوبه بسرعة احتراماً لحياء عثمان المعروف حتى قبل أن يدخل عليه.

هذا المشهد وحده، بكل تفاصيله الدقيقة، يكفي ليُظهر أن عثمان لم يكن يحتاج إلى سيفٍ يفرض به هيبته على الآخرين كما فعل غيره من الصحابة الأشداء، بل كانت شخصيته اللينة الرقيقة تفرض احتراماً من نوعٍ مختلف تماماً، أرقى في جوهره وأعمق في تأثيره النفسي؛ فالحياء الذي يجعل الملائكة أنفسهم يستحون من صاحبه، صفةٌ نادرة الوجود حتى بين أفضل الناس، تكشف عن نقاءٍ داخلي وحساسيةٍ أخلاقية عالية لا تحتاج إلى إثباتٍ خارجي بالقوة أو السلطان.

◆ ٢. من السابقين الأولين

أسلم عثمان في وقتٍ مبكر جداً من الدعوة الإسلامية، بعد أن دعاه صديقه المقرب أبو بكر الصديق مباشرة إلى هذا الدين الجديد، فلم يتردد كثيراً في قبوله؛ فطبيعته النفسية الباحثة أصلاً عن الطهارة الأخلاقية والاستقامة السلوكية كانت مهيأة تماماً لقبول دينٍ يدعو صراحة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك التي كان عثمان يمارسها أصلاً بفطرته حتى قبل الإسلام.

وقد آذته قريش لإسلامه كما آذت غيره من المسلمين الأوائل، رغم مكانته الاجتماعية العالية ونسبه الرفيع في بني أمية، حتى اضطر إلى الهجرة هجرتين كاملتين: الأولى إلى الحبشة فراراً بدينه من بطش قريش المتصاعد، والثانية إلى المدينة المنورة بعد ذلك بسنوات، فكان بذلك،

كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في تعبيرٍ بليغ، 'أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام'، إذ هاجر ومعه زوجته رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي كان كثيرون يهاجرون منفردين تاركين أهلهم خلفهم مؤقتاً.

الفصل الثاني

ذو النورين — الكرم والفداء

۞ ۞ ۞

◆ ١. لقبٌ لم يُمنح لغيره

تزوج عثمان من رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم في زواجٍ بارك له فيه النبي بنفسه، فلما توفيت رقية بعد سنوات من الزواج السعيد، زوّجه النبي صلى الله عليه وسلم من أختها أم كلثوم مباشرة دون تردد، فصار بذلك الصحابي الوحيد على الإطلاق الذي جمع شرف الزواج من ابنتَي نبيّ واحد تباعاً، ولُقّب لأجل هذه المكرمة الفريدة 'ذا النورين'، أي صاحب النورين، في إشارةٍ رمزية إلى نور الزواجين المتتاليين اللذين أضاءا حياته. وقد قال بعض الصحابة معلقين على هذه المكانة الفريدة إنه لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم عشر بناتٍ لزوّجهنّ عثمان واحدةً تلو الأخرى، لما رأوا فيه من الصدق والوفاء والأمانة التي لا تتزعزع.

◆ ٢. جيش العسرة: حين يشتري رجلٌ الجنة بماله

حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى تجهيز جيش غزوة تبوك في وقتٍ عصيب بالغ الصعوبة من القحط الشديد والحر اللاهب، عُرفت هذه الغزوة باسم 'جيش العسرة' نظراً لصعوبة تجهيزها المادي واللوجستي الهائل، فتصدّق عثمان بما لم يتصدق به أحدٌ من قبله في تاريخ الإسلام كله: ثلاثمائة بعيرٍ كاملة بأقتابها وأحلاسها جاهزة للاستخدام الفوري، وألف دينارٍ من ذهبٍ خالص نقداً مباشراً، حتى جعل النبي صلى الله عليه وسلم يُقلّب يديه فرحاً بالغاً بهذا العطاء السخي ويقول جملته الشهيرة: 'ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم'، وهي شهادة نبوية صريحة بالمغفرة الكاملة لم تُمنح لغيره من الصحابة بهذا اللفظ الواضح القاطع.

◆ ٣. بئر رومة: أول وقفٍ للماء في الإسلام

لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً، لم يكن فيها ماءٌ عذبٌ كافٍ يكفي حاجة المسلمين المتزايدة سوى بئرٍ واحدة يملكها رجل يهودي يُدعى رومة، وكان يبيع الماء منها بثمنٍ باهظ يُرهق الفقراء ويستغل حاجتهم الملحة. فحثّ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على مَن يشتريها ليجعلها وقفاً مجانياً للمسلمين جميعاً، فبادر عثمان واشتراها بمالٍ كثير دفعه لليهودي مباشرة، ووقفها سبيلاً مجانياً للفقراء والغني على حدٍّ سواء دون تمييز، فكانت بذلك أول وقفٍ

خيري للماء في تاريخ الإسلام كله، ولا يزال أثرها العمراني قائماً في المدينة المنورة إلى يومنا هذا، شاهداً حياً على هذا الكرم الذي امتد أثره عبر قرون طويلة.

الفصل الثالث

بيعة الرضوان وجمع المصحف

۞ ۞ ۞

◆ ١. سفير النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة

في صلح الحديبية، حين أراد النبي صلى الله عليه وسلم التفاوض مع قريش على أداء العمرة، أرسل عثمان تحديداً سفيراً إلى مكة للتفاوض المباشر مع أشرافها، مستفيداً من مكانته ونسبه القوي في بني أمية الذي يضمن له نوعاً من الحماية النسبية هناك. فاحتُبس هناك أكثر من الوقت المتوقع، وشاع بين المسلمين خبرٌ كاذب مقلق بأنه قُتل غدراً. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فوراً إلى مبايعته على القتال حتى الموت انتقاماً لعثمان إن صح الخبر، تحت شجرةٍ عُرفت هذه البيعة التاريخية باسم 'بيعة الرضوان' التي أنزل الله فيها رضاه الصريح على المؤمنين في آياتٍ قرآنية خالدة.

وحين تعذّر حضور عثمان بنفسه لأداء البيعة معهم بسبب احتجازه في مكة، لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم مكانه شاغراً، بل بايع عنه بيده اليمنى الشريفة مباشرة، وقال معلناً هذه المكرمة الفريدة: 'هذه يد عثمان'، وهي مكرمة استثنائية لم تُنَل لغيره من الصحابة على الإطلاق: أن يبايع النبي صلى الله عليه وسلم عن رجلٍ غائب بيده الشريفة شخصياً، تعويضاً رمزياً بليغاً عن غيابه الجسدي عن هذا المشهد التاريخي المهم.

◆ ٢. المصحف الإمام: توحيد كلمة الأمة

حين اتسعت الفتوحات الإسلامية بشكلٍ كبير في خلافته، وتفرّق المسلمون في الأمصار البعيدة المترامية الأطراف، بدأت تظهر اختلافاتٌ ملموسة في طريقة قراءة القرآن الكريم بين أهل الشام وأهل العراق تحديداً، حتى كاد الأمر يقود إلى فتنةٍ حقيقية خطيرة، فقد كان كل إقليمٍ يتعصب بشدة لقراءة صحابيّه الذي علّمه القرآن دون مرونة في قبول القراءات الأخرى المشروعة. فجمع عثمان كبار الصحابة المتبقين على قيد الحياة، وكلّف زيد بن ثابت ونفراً معه من كبار الحفاظ بنسخ المصحف الذي كان قد جمعه أبو بكر من قبل على حرفٍ واحد موحد، وأرسل نسخاً موحدة رسمية إلى جميع الأمصار الإسلامية، وأمر بحرق ما سواها من الصحف الفردية المخالفة، حسماً قاطعاً لكل خلافٍ محتمل قادم.

وهذا القرار الجريء البالغ الحسم، الذي قد يبدو للوهلة الأولى شديد الصرامة من رجلٍ عُرف أصلاً باللين والحياء الشديدين، يكشف أن عثمان، حين تعلّق الأمر بحماية كتاب الله من التفرق والاختلاف المدمر، لم يتردد لحظة في اتخاذ أصعب القرارات الممكنة، تماماً كما فعل أبو بكر من قبله في حروب الردة الحاسمة. فسُمّي هذا المصحف الموحد 'المصحف الإمام'، وهو الأصل التاريخي الذي تُطبع عليه المصاحف كلها إلى يومنا هذا دون أي اختلاف يُذكر.

الفصل الرابع

مواقف خالدة من حياته

۞ ۞ ۞

◆ ١. الذي يختم القرآن في ركعة

عُرف عثمان بشدة تعلقه العميق بالقرآن الكريم منذ شبابه، حتى قيل إنه كان يختمه في ركعةٍ واحدة من قيام الليل الطويل في بعض الأحيان النادرة التي يخلو فيها بربه، وكان قوله المشهور الذي يكشف هذا التعلق العميق: 'لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام ربنا'. وهذا التعلق العميق المستمر بكتاب الله يُفسّر بوضوح لماذا كان همّه الأكبر طوال خلافته حماية هذا الكتاب المقدس من التحريف والاختلاف المدمر، فجمعه على حرفٍ واحد موحد كما مرّ ذكره، إذ كان القرآن بالنسبة له ليس مجرد شعيرةٍ دينية تُتلى في المناسبات، بل قوت القلب الحقيقي الذي لا يستغني عنه لحظة واحدة.

◆ ٢. عتقٌ لا ينقطع

استمر عثمان طوال حياته الطويلة على عادة راسخة في عتق الرقاب المملوكة كل يوم جمعة تقرباً إلى الله دون انقطاع، حتى قيل إنه أعتق في يومٍ واحد بضعاً وعشرين رقبة كاملة دفعة واحدة. وكان هذا امتداداً طبيعياً لخُلقه الأول الذي عرفناه من إنفاقه المبكر في سبيل تحرير المُستضعفين منذ أول إسلامه، فلم يتغير هذا الجانب الجوهري من شخصيته الكريمة رغم انتقاله الكبير من مجرد تاجرٍ ثري إلى خليفة يحكم أعظم دولة في زمانه.

◆ ٣. منع الصحابة من الدفاع عنه

حين اشتد الحصار حول داره في أيامه الأخيرة، وأراد كبار الصحابة ممن كانوا متواجدين في المدينة، ومنهم عبد الله بن عمر والحسن بن علي، أن يقاتلوا دفاعاً عنه بالسلاح لحمايته من هذا الحصار الظالم، منعهم عثمان بشدة بالغة، وأغلق الباب دونهم بنفسه، خشية أن تُراق دماء المسلمين بسببه هو شخصياً في قتالٍ داخلي مدمر. وقال موضحاً موقفه الحاسم: 'مَن كفّ يده فهو خيرٌ ممن بسطها'. وفضّل بكل وعي أن يكون هو وحده الثمن المدفوع لا أن يدفع غيره حياته في معركةٍ لا يريدها أصلاً بين المسلمين أنفسهم.

الفصل الخامس

الباني الصامت — عمرانه وشوراه

۞ ۞ ۞

◆ ١. تردده قبل قبول الأمانة

حين حصر عمر الخلافة بعد موته في ستة نفرٍ من كبار الصحابة، وتولى عبد الرحمن بن عوف مهمة استطلاع رأي الأمة الدقيقة، سأل كل واحدٍ من المرشحين على انفراد عمن يراه أحق بالأمر بعده من زملائه. وحين استقر رأي الشورى الجماعية على عثمان بعد مداولات مستفيضة، لم يتلقّ الخبر بفرحٍ ظاهر يليق بمن بلغ أعلى منصب ممكن في الأمة، بل ظل صامتاً هنيهة طويلة يفكر بعمق ثم قَبِل بعد أن أخذ عليه عبد الرحمن العهد الصريح أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر من قبله دون انحراف. وهذا التردد القصير الصامت، من رجلٍ لم يكن يوماً طامعاً في السلطة أو ساعياً إليها، يعكس وعياً مبكراً بثقل الأمانة الجسيمة التي أقبل عليها لا فرحاً سطحياً بغنيمةٍ دنيوية نالها بسهولة.

◆ ٢. أول أسطول وأول شهيدة في البحر

بشّر النبي صلى الله عليه وسلم يوماً أم حرام بنت مِلحان بأنها ستكون من أول جيشٍ يركب البحر غازياً في سبيل الله، فضحكت مستغربة من هذه البشارة التي بدت بعيدة المنال، فدعا لها النبي صلى الله عليه وسلم بالثبات على هذا الخير. وفي خلافة عثمان بعد عقودٍ من هذه البشارة، تحقق ما بشّرها به حرفياً: فقد أذن عثمان بأول غزوةٍ بحرية في تاريخ الإسلام كله، بقيادة معاوية بن أبي سفيان والي الشام، لفتح جزيرة قبرص الاستراتيجية، وشاركت فيها أم حرام نفسها فعلياً وهي في سنٍّ متقدمة جداً، ولكنها توفيت هناك للأسف بعد نزولها من على دابتها مباشرة عقب الوصول، فكانت بذلك أول شهيدةٍ في غزوٍ بحري إسلامي، مصداقاً حرفياً لبشارة النبي صلى الله عليه وسلم التي سبقت وقوع الحدث الفعلي بعقودٍ طويلة من الزمن.

◆ ٣. توسعة المسجد النبوي

لم يكتفِ عثمان بجمع القرآن الكريم فحسب، بل التفت أيضاً باهتمامٍ بالغ إلى بيت الله في المدينة المنورة، فوسّع المسجد النبوي الشريف توسعةً كبرى تجاوزت حتى توسعة عمر السابقة من قبله في مساحتها وفخامتها، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة بدقة والجص المتين، وسقفه بخشب الساج الفاخر المستورد، في أول عمارةٍ زخرفية جمالية شهدها المسجد النبوي منذ

إنشائه. وقد اعترض بعض الناس البسطاء على هذا التجميل الظاهري خشية أن يكون بذخاً غير ضروري، فردّ عثمان موضحاً موقفه بأن النبي صلى الله عليه وسلم وسّعه في وقته بما كان متاحاً فعلياً في زمانه المحدود الإمكانات، وأن هذا التوسع الجديد مما يليق بمكانة المسجد الدينية العالية لا تبذيراً مذموماً فيه، موازناً بحكمة بين الحفاظ على البساطة الدينية الأصيلة وبين ما تستوجبه كثرة المصلين المتزايدة من توسعة عمرانية ضرورية.

الفصل السادس

الفتنة والحصار — الاستشهاد

۞ ۞ ۞

◆ ١. اتساعٌ جديد وفتنٌ ناشئة

واصل عثمان في خلافته الطويلة نسبياً توسيع رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً بشكلٍ ملحوظ، وأنشأ أول أسطولٍ بحري إسلامي في تاريخ الأمة كلها. لكن مع طول مدة خلافته التي امتدت اثنتي عشرة سنة كاملة، وتغير الأجيال التي لم تعد تعرف مباشرة فضل الصحابة الأوائل، بدأت تظهر تدريجياً فتنٌ ودعايات مغرضة روّج لها أصحاب أهواء شخصية، أشهرهم شخصٌ يُدعى عبد الله بن سبأ، الذي سعى بمهارة خبيثة للتفريق بين المسلمين بنشر الشائعات المغرضة واتهام الخليفة الشيخ الطاعن في السن بالمحاباة لأقاربه، مستغلاً كل قرارٍ إداري عادي ليُضخّمه في نفوس العامة البسيطة التي لا تعرف الحقائق الكاملة.

◆ ٢. 'لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله'

تجمّع حول داره في المدينة جمعٌ كبير من الغوغاء المُحرِّضين بشدة يطالبونه بالتنازل الفوري عن الخلافة، فعرض عليه بعض الصحابة المخلصين أن يقاتل دفاعاً عن نفسه وعن منصبه الشرعي، وكان قادراً فعلياً على ذلك بما يملكه من أنصار مخلصين، لكنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً حقناً لدماء المسلمين التي كان يخشى أن تُراق في قتالٍ داخلي مدمر، وقال كلمته الخالدة التي حُفظت عبر التاريخ :'لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله'، في إشارةٍ رمزية بليغة إلى أن الخلافة أمانةٌ إلهية مقدسة لا يجوز التنازل عنها استجابةً لتهديد الغوغاء أو ضغط الجماهير المُحرِّضة، وإن كان مستعداً تماماً أن يدفع حياته نفسها ثمناً لهذا المبدأ الراسخ بدل أن يفتح باب الفوضى السياسية على الأمة بأكملها لأجيال قادمة.

◆ ٣. مصحفٌ ملطّخٌ بالدم

طال الحصار داره أياماً طويلة متتالية حتى انقطع عنه الماء والطعام تماماً، وتسوّر عليه المحاصرون في النهاية من فوق سطح الدار وهو جالسٌ بهدوء يقرأ القرآن الكريم كعادته اليومية، فقُتل رضي الله عنه وقطراتُ دمه الطاهر تسقط مباشرة على المصحف المفتوح أمامه عند قوله تعالى بالذات: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، في مصادفة رمزية مؤثرة تختصر كل معاني الصبر والتوكل. وهذا المشهد الختامي المؤلم، رجلٌ يُقتل غيلةً وهو في أعبد حالاته

الروحية، يُلخّص كل حياته السابقة بدقة: أنه آثر السلامة الجماعية للأمة على نجاته الفردية المؤقتة، وآثر تلاوة كتاب الله الهادئة على الدفاع العنيف عن نفسه بالسيف، حتى في اللحظة الأخيرة الحاسمة من حياته.

«فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» — الآية التي كانت مفتوحةً أمام عثمان لحظة استشهاده.

الباب الرابع

علي بن أبي طالب

تربية النبوة، وفروسية الإسلام، وحكمةٌ ختمها السيف

الفصل الأول

في حجر النبوة — النشأة والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. الصبي الذي تربى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أوائل مَن آمن به منذ نعومة أظفاره. حين اشتد الفقر بمكة في عام قحطٍ شديد أصاب أهلها جميعاً، وكان أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم كثير العيال قليل ذات اليد، تكفّل النبي صلى الله عليه وسلم بتربية علي في بيته تخفيفاً عن عمه الذي رباه هو نفسه بعد وفاة والديه، فنشأ الصبي الصغير في كنف الوحي منذ صغره المبكر، يرى نور النبوة ينزل من حوله ولا يرى غيره من أقرانه الصبيان شيئاً من هذا النور الخفي.

ولأجل هذه النشأة الفريدة التي لم تتكرر لأي صحابي آخر، حين عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام عليه وهو لا يزال غلاماً صغيراً لم يبلغ الحلم بعد، لم يتردد لحظة واحدة في القبول رغم صغر سنه، فكان بذلك أول الصبيان إسلاماً على الإطلاق في تاريخ الدعوة كلها، بل قيل إنه أول مَن أسلم من الناس أجمعين بعد خديجة أم المؤمنين مباشرة، سابقاً بذلك حتى كبار الرجال الذين أسلموا لاحقاً بعد تفكيرٍ وتردد.

◆ ٢. ليلة الفراش: تضحيةٌ بالروح

حين أجمعت قريش في مؤامرةٍ محكمة على قتل النبي صلى الله عليه وسلم في فراشه بالذات ليلة الهجرة المفصلية، طلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن ينام مكانه في فراشه متوشحاً ببرده الأخضر المعروف، ليُوهم المتربصين المحيطين بالبيت أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال نائماً في بيته بينما يخرج هو فعلياً من الباب أمام أعينهم مباشرة متجهاً إلى الغار في طريقه للهجرة. ولم يتردد علي لحظة واحدة رغم علمه اليقيني أن السيوف المُشرَعة فوق ذلك الفراش قد تهوي عليه في أي لحظة، ونام تلك الليلة الحاسمة وهو يعلم علم اليقين أنها قد تكون آخر لياليه على الإطلاق.

وقد أنزل الله فيه، بحسب ما ذكره كثير من المفسرين في سبب النزول، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، وهذه الآية، إن صحت نسبتها لهذه الحادثة بالذات، تضع تضحية علي في مصاف أعلى درجات الإيثار الممكنة: أن يبيع الإنسان نفسه بالكامل، أي

يعرضها للموت المحقق تقريباً، طلباً لرضا الله وحده لا لأي مكسبٍ دنيوي آخر يُرتجى. وفي الصباح التالي، حين اقتحم المشركون الغرفة بسيوفهم المسلولة وهم يتوقعون رؤية النبي صلى الله عليه وسلم نائماً، وجدوا علياً بدلاً منه، فسألوه بغضبٍ عن مكان محمد، فأخبرهم بصدقٍ تام لا يعرف المراوغة حتى في أشد اللحظات خطراً على حياته الشخصية.

الفصل الثاني

أسد الله — فروسيته في الغزوات

۞ ۞ ۞

◆ ١. مبارز الإسلام الأول

برز علي في أغلب الغزوات التي خاضها المسلمون فارساً شجاعاً لا يُشقّ له غبار ولا يُجارى في ساحة القتال، ومن أشهر مواقفه المسجلة في كتب التاريخ مبارزته الفردية لعمرو بن عبد وَدّ العامري في غزوة الخندق، وكان عمرو من أشجع فرسان العرب المعروفين على الإطلاق حتى إن أحداً من المسلمين لم يجرؤ على مبارزته حين طلبها متبجحاً أمام الصفوف، فانتدب النبي صلى الله عليه وسلم علياً تحديداً لهذه المهمة الخطرة، فقتله علي في مبارزةٍ حاسمة سريعة رفعت معنويات المسلمين المنهكة في أشد أيام الحصار حرجاً ويأساً.

وفي غزوة خيبر، حين تعثّر جيش المسلمين في فتح الحصن المنيع رغم محاولات متكررة فاشلة من عدة قادة، قال النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي جملته المشهورة: 'لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه'، فتشوّق الصحابة جميعاً لنيل هذا الشرف العظيم، فأعطاها في الصباح علياً تحديداً رغم أنه كان يشتكي من ألمٍ في عينيه في ذلك اليوم، ففتح الله عليه الحصن بعد قتالٍ شديد.

◆ ٢. بيت الزهراء: زواجٌ متواضع رغم المكانة

تزوج علي من فاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلم في زواجٍ مبارك، وكان بيتهما من أشد بيوت الصحابة تواضعاً وزهداً رغم قرب صاحبيه الشديد من النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إن فراشهما كان إهاب كبشٍ واحد يُتوسّد نصفه ويُفترش نصفه الآخر دون أي رفاهية إضافية، رغم أن علياً كان من أقرب الناس نسباً ومكانة دينية إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بمقدوره أن يعيش حياة أرفه بكثير لو أراد ذلك. وهذا الزهد الاختياري المتعمد في زمنٍ كانت تتسع فيه الفتوح والغنائم بشكلٍ كبير على غيرهما من الصحابة، يكشف عن نمطٍ نفسي متكامل من الشخصية يرى في قرب المكانة الدينية سبباً إضافياً لمزيد من التقشف الطوعي لا سبباً لمزيد من الترف المادي كما قد يظن البعض.

الفصل الثالث

أقضاكم علي — العلم والحكمة

۞ ۞ ۞

◆ ١. باب مدينة العلم

عُرف علي بعمق فهمه الاستثنائي وحضور بديهته السريع في مسائل القضاء المعقدة، حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم في وصفٍ مختصر بليغ: 'أقضاكم علي'، أي أكثركم إتقاناً لفن القضاء العادل. وكان الخلفاء الذين سبقوه في الحكم، أبو بكر وعمر وعثمان، يستشيرونه باستمرار في المعضلات الفقهية الصعبة التي تحتاج إلى فهمٍ عميق يتجاوز ظاهر النصوص، وكثيراً ما رُويت عن عمر عبارته الشهيرة المعبرة عن هذا التقدير :'لا أبقاني الله لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن'، أي لا أبقاني الله حياً في زمنٍ تُستعصى فيه مسألة ولا يكون علي موجوداً ليحلها. وقد تميزت أحكامه القضائية بجمعٍ نادر بين حرفية النص الشرعي الدقيق وروح العدل الأعمق الكامنة خلفه، فكان يبحث دائماً عن الحكمة الحقيقية من وراء الحكم الشرعي لا عن ظاهر اللفظ المجرد فقط دون فهم مقاصده.

◆ ٢. الزهد في زمن الخلافة

حين آلت إليه الخلافة أخيراً بعد مقتل عثمان المأساوي، وسط ظروفٍ سياسية مضطربة بالغة التعقيد ورثها عن سلفه، ظل علي على زهده المعروف عنه منذ شبابه، يرقّع ثوبه القديم بيده الخاصة دون خجل من هذا المظهر المتواضع، ويأكل خشن الطعام البسيط رغم كونه أمير المؤمنين الفعلي لأعظم دولة في زمانه، ويقول موضحاً هذا الاختيار الواعي: 'ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقُرصيه'، مؤكداً بوضوح أن قيادته للأمة لن تكون سبباً في ترفٍ شخصي يتنازل عنه العدل الذي يسعى لتحقيقه بين الناس.

الفصل الرابع

سنوات الفتنة — الجمل وصفين

۞ ۞ ۞

◆ ١. ميراث الفتنة

حين بويع علي بالخلافة عقب مقتل عثمان في ظروفٍ ملتبسة بالغة الغموض لم تُحسم فيها هوية القتلة الحقيقيين بوضوح كافٍ، ورث معها مطالبةً عارمة متصاعدة بالقصاص الفوري من قتلة عثمان، طالبته بها بشدة عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير من جهة واحدة، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام القوي من جهةٍ أخرى مستقلة. ورأى علي بحكمته السياسية أن إحقاق القصاص الفوري يحتاج أولاً إلى استقرار الدولة الداخلي وتتبع القتلة الحقيقيين بدقة وسط الفوضى العارمة التي خلّفتها الفتنة، فاختلفت وجهات النظر بشدة في أولوية التنفيذ الزمني لا في المبدأ الأخلاقي نفسه الذي يتفق عليه الجميع.

◆ ٢. موقعة الجمل وصفين: حين يقتتل الصحابة

أفضى هذا الخلاف العميق في التوقيت والأولويات إلى معركة الجمل الشهيرة بين جيش علي من جهة وجيش عائشة وطلحة والزبير من جهةٍ أخرى، وهي من أكثر مشاهد التاريخ الإسلامي إيلاماً وحزناً على الإطلاق: أن يقتتل مَن كانوا بالأمس القريب صفاً واحداً متراصاً خلف النبي صلى الله عليه وسلم في أصعب المعارك. وقد ندم كثيرٌ من المشاركين فيها بعد انتهائها مباشرة على ما وقع، وسعى علي بنفسه إلى إكرام عائشة وإعادتها إلى المدينة بموكبٍ مهيب لائق بمكانتها رغم كل ما جرى بينهم من قتال، حرصاً منه على عدم تحويل الخلاف السياسي إلى عداوة شخصية دائمة.

ثم كانت موقعة صفين لاحقاً مع جيش معاوية بن أبي سفيان، وانتهت بعد قتالٍ طويل مرهق بالتحكيم الذي لم يُثمر حسماً واضحاً لأي طرف، وتمخض عن هذا التحكيم غير الحاسم ظهور فرقة الخوارج المتشددين الذين خرجوا على عليّ نفسه احتجاجاً على قبوله التحكيم أصلاً، فقاتلهم في موقعة النهروان الحاسمة. وما يستحق التأمل العميق في هذه المرحلة المؤلمة بأكملها من سيرة علي، أنه لم يكن طرفاً يسعى للسلطة لذاتها أو يتلذذ بالصراع، بل رجلاً وجد نفسه فجأة وسط أمواج فتنةٍ أكبر بكثير من أن يُخمدها فردٌ واحد مهما بلغت حكمته الشخصية،

وظل، وسط كل هذه الاضطرابات المتلاحقة، متمسكاً بمبدأٍ ثابت أنه لن يبدأ أحداً بقتالٍ من تلقاء نفسه، ولن يرفض يد مصالحة إن أمكنت بأي شكلٍ من الأشكال.

الفصل الخامس

مواقف خالدة من حياته

۞ ۞ ۞

◆ ١. درعه عند اليهودي: حين يخسر الخليفة القضية

فقد علي درعاً له في إحدى الغزوات ثم وجدها بعد ذلك عند رجلٍ يهودي يعرضها للبيع في السوق. فرفعه علي إلى القاضي شريح مطالباً بها، وقال: هذه درعي، لم أبعها ولم أهبها. فسأل القاضي اليهودي: ما تقول؟ فأنكر أنها لعلي. فطلب القاضي من علي بيّنة تثبت ملكيته، فلم يجد علي شاهدين عدلين يشهدان له سوى ابنه الحسن وخادمه، فرفض القاضي شهادة الابن لأبيه، فحكم شريح بالدرع لليهودي! فأخذها اليهودي وانصرف، وأمير المؤمنين نفسه يخرج من قاعة القضاء خاسراً قضيته أمام قاضٍ عيّنه هو بنفسه. لكن اليهودي، بعد خطواتٍ قليلة، عاد وقال: أشهد أن هذه أحكام الأنبياء! والله إن أمير المؤمنين أتى بي إلى قاضيه فقضى عليه، الدرع درعك يا أمير المؤمنين ثم أسلم لما رأى من هذا العدل الذي لا مثيل له، أن يُحاكَم الحاكم في محكمته الخاصة كأي رجلٍ من عامة الناس، ويخسر القضية أمام ذمي، ولا يعترض.

تنبيهٌ لا بد منه: هذه القصة، على شهرتها الواسعة في كتب الرقائق والمواعظ، ضعيفةٌ جداً من حيث الإسناد عند المحققين من أهل الحديث، بل حكم عليها بعضهم بالبطلان، لتفرّد راوٍ منكر الحديث بها. وقد آثرنا ذكرها لشهرتها ولما تحمله من معنى تربوي جميل في مبدأ خضوع الحاكم للقانون، لا لأنها ثابتةٌ تاريخياً بسندٍ صحيح، والأمانة العلمية تقتضي التنبيه على ذلك.

◆ ٢. كنس بيت المال بيده

كان علي يوزّع كل ما في بيت المال من عطاءٍ على الناس دون أن يُبقي شيئاً لنفسه أو لأقاربه، حتى إذا فرغ من التوزيع أمر بكنس بيت المال ورشّه بالماء ثم صلّى فيه ركعتين، شاهداً على نفسه أنه لم يحتجز منه درهماً واحداً لذاته. وهذا الحرص الشعائري على تفريغ بيت مال المسلمين كاملاً يعكس فهماً عميقاً لمعنى الأمانة: أن ما في بيت المال ليس ملكاً يُدّخر لصاحب السلطة، بل حقٌّ يجب أن يعود إلى أصحابه الحقيقيين كاملاً غير منقوص مهما بلغ إغراء الاحتفاظ به.

◆ ٣. وصيته الأخيرة لابنيه

وهو على فراش الموت من أثر الطعنة، جمع علي ولديه الحسن والحسين وأوصاهما بوصيةٍ خالدة عبر الأجيال: 'أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيءٍ منها زُوي عنكما، وقولا بالحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً' ثم أوصى بالإحسان إلى قاتله رغم جرمه الفادح، وألا يتجاوز القصاص منه حده المحدد. وفي هذه الوصية الأخيرة المؤثرة، ملخصٌ كامل لكل فلسفته في الحياة: أن العدل والتقوى أبقى من أي انتصارٍ شخصي عابر، حتى في مواجهة قاتل النفس المباشر.

الفصل السادس

حكمة الحاكم — قراراته الأخيرة

۞ ۞ ۞

◆ ١. تردده في قبول البيعة

حين قُتل عثمان، وأقبل الناس بأعداد غفيرة على علي يريدون مبايعته فوراً خليفةً جديداً، لم يتعجل قبول الأمر كما قد يظن من يتصور السلطة غاية تُشتهى لذاتها، بل تردد أياماً طويلة نسبياً، وقال لهم بصراحة تحذيرية: 'دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول'. وحين ألحّوا عليه بشدة لأن المدينة لا تحتمل فراغاً سياسياً في القيادة وسط الفتنة المتصاعدة التي أعقبت مقتل عثمان مباشرة، قَبِل مكرهاً لا راغباً في هذا المنصب الثقيل، وبايعه الناس رسمياً في المسجد النبوي. وهذا التردد الطويل نسبياً، من رجلٍ هو أحد أقرب الناس نسباً ومكانةً من النبي صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، يكشف بوضوح أنه كان يرى في هذا المنصب عبئاً ثقيلاً يُحسب له ألف حساب مسبق لا مغنماً يُهرع إليه بفرح.

◆ ٢. إرسال ابن عباس لمناظرة الخوارج

حين خرجت فرقة الخوارج على علي بعد قبوله التحكيم في صفين، ورفضوا مبايعته معتبرين ذلك القبول تنازلاً عن حكم الله في نظرهم المتشدد، لم يُبادر علي إلى قتالهم مباشرة بالسيف كما قد يفعل حاكمٌ آخر أقل صبراً، بل أرسل إليهم ابن عمه عبد الله بن عباس تحديداً، وكان من أعلم الصحابة وأكثرهم قدرة على الجدل العلمي الهادئ، ليحاورهم بالحجة العلمية الدقيقة قبل اللجوء إلى السيف. فناظرهم ابن عباس بصبرٍ في مآخذهم الفقهية المتعددة، فرجع منهم عددٌ كبير عن موقفهم المتشدد اقتناعاً تاماً بقوة الحجة المقدمة، بينما أصرّ الباقون منهم على موقفهم وقاتلهم إياه رغم كل المحاولات، فكانت موقعة النهروان الحتمية. وفي هذا الترتيب المتأني — الحوار العلمي أولاً ثم القتال إن تعذّر كل سبيل آخر ممكن — انعكاسٌ واضح لمنهج علي العام في الحكم الرشيد: أن يستنفد جميع وسائل الإقناع السلمي المتاحة قبل اللجوء إلى القوة العسكرية، ولو مع من خرجوا عليه بالسلاح فعلياً.

◆ ٣. تفقّده للأسواق بنفسه

كعادة سلفه عمر بن الخطاب تماماً، كان علي يخرج بنفسه شخصياً إلى أسواق الكوفة الصاخبة يتفقد أحوال البيع والموازين بدقة، وينهى بشدة عن أي غش تجاري يكتشفه، ويُذكّر التجار مباشرة بتقوى الله في معاملاتهم اليومية، غير مكتفٍ أبداً بولاةٍ يقومون عنه بذلك من بعيد دون رقابة مباشرة. وهذا الحرص الشخصي المباشر على مراقبة معايش الناس اليومية، رغم انشغاله الشديد بحروبٍ داخلية مرهقة استنزفت جل سنوات عهده القصيرة نسبياً، يُظهر بوضوح أن اهتمامه بالعدل الاجتماعي لم يكن مجرد شعارٍ يُرفع في الخطب الرسمية، بل ممارسةً يومية فعلية لم يتخلّ عنها حتى في أشد سنوات خلافته اضطراباً وحروباً داخلية متلاحقة.

الفصل السابع

السيف المسموم — الاستشهاد

۞ ۞ ۞

◆ ١. فجرٌ آخر في محراب الكوفة

كما استُشهد عمر بن الخطاب من قبله وهو يؤم المصلين في صلاة الفجر، استُشهد علي بالطريقة نفسها تماماً في مصادفةٍ تاريخية مؤثرة: ضربه عبد الرحمن بن ملجم، أحد الخوارج الغاضبين الذين انتقموا لقتلى النهروان السابقين، بسيفٍ مسموم مُعدٍّ خصيصاً لهذه الغاية وهو خارجٌ متوجهاً لصلاة الفجر في مسجد الكوفة الجامع، فأُصيب في رأسه إصابةً بالغة الخطورة أودت بحياته بعد أيام قليلة من الألم المتصاعد.

◆ ٢. العفو في آخر لحظة

حين سُئل عن قاتله بعد أن أُلقي القبض عليه فوراً، أوصى أبناءه الحسن والحسين بوضوح ألا يُمثّلوا بجثته إن مات متأثراً بجراحه، وأن يقتصّوا منه ضربةً واحدة فقط بمثل ما ضربه به دون أي زيادة انتقامية، تطبيقاً حرفياً للعدل حتى في أشد لحظات الألم الشخصي والغضب المبرر، وقال موضحاً هذا الموقف المتزن: 'إن أعش فأنا أولى بدمي، وإن أمت فاضربوه ضربةً بضربة، ولا تمثّلوا بالرجل'. وبهذا الموقف الأخير المؤثر، يُختم مشوار الخلافة الراشدة بأكملها كما بدأ تماماً: بحرصٍ بالغ على العدل يعلو فوق الرغبة الطبيعية في الانتقام، حتى من قاتل النفس مباشرة.

الباب الخامس

طلحة بن عبيد الله

طلحة الخير، طلحة الفياض — الذي وقى النبي بيده يوم أُحد

الفصل الأول

بشارة الوحي — إسلامه المبكر

۞ ۞ ۞

◆ ١. تاجرٌ عاد من الشام بخبرٍ عجيب

في قوافل قريش التي كانت تمخر رمال الصحراء بين مكة والشام، كان هناك دائماً رجلٌ يحمل في عينيه فضولاً أعمق من فضول التاجر الباحث عن الربح. هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان، من بني تيم، القبيلة نفسها التي أنجبت أبا بكر الصديق، فربطت بين الرجلين، إلى جانب رابطة الدم، ألفةٌ قديمة نسجتها سنون التجارة المشتركة والأسفار الطويلة تحت الشمس الحارقة نفسها.

وفي إحدى تلك الرحلات إلى بصرى الشام، بينما كانت القافلة تستريح عند أطراف السوق، اقترب راهبٌ من صومعته، وكأن عينيه كانتا تبحثان عن وجهٍ بعينه بين الوجوه القادمة من الجزيرة العربية. سأل طلحة سؤالاً لم يكن يتوقعه: هل ظهر فيكم رجلٌ يُقال له أحمد؟ ووقف طلحة للحظة، والريح الحارة تداعب ثوبه، يشعر أن هذا السؤال ليس سؤالاً عابراً، بل نبوءةً تتسلل إلى قلبه من عالمٍ لا يراه. فأخبره الراهب، بصوتٍ يحمل يقين مَن قرأ الكتب القديمة، أن هذا الرجل سيكون له شأنٌ لا يُضاهى في تاريخ البشرية.

عاد طلحة إلى مكة، لكن شيئاً في داخله لم يعد كما كان؛ فالكلمات التي سمعها في صومعة نائية بعيدة ظلت تتردد في أذنه طوال طريق العودة الطويل عبر الصحراء الصامتة، وكأن القدر كان يُمهّد له الطريق نفسياً قبل أن يطأه بقدميه. فما إن وطئت قدماه أرض مكة حتى وجد أبا بكر الصديق يهمس بدين جديد إلى مسامع الحذرين، فأسلم طلحة على الفور، بلا سؤالٍ ولا تردد، وكأن قلبه كان ينتظر هذه اللحظة منذ أن سمع كلام الراهب في تلك الصومعة البعيدة.

◆ ٢. الأذى في سبيل العقيدة

لم يكن الإيمان في مكة الأولى نزهةً هادئة، بل كان جمرةً يحرق مَن يحملها. ولقي طلحة من أذى قريش ما تنوء به الجبال، حتى جاء يومٌ رُبط فيه مع أبي بكر الصديق نفسه في حبلٍ واحد، وأُلقيا تحت الشمس اللاهبة يتضوران عذاباً أمام أعين المشركين الذين ظنوا أن الألم الجسدي كفيلٌ بأن يفكّ قبضة الإيمان عن قلبين. فسُمّي الرجلان 'القرينين' لا لأن الحبل جمعهما

فحسب، بل لأن الألم نفسه صار بينهما رباطاً أعمق من رباط الجسد؛ إذ ما مِن شيءٍ يوحّد بين قلبين كما توحّد بينهما المحنة المشتركة.

ولم يخرج طلحة من تلك التجربة القاسية منكسراً كما أراد له معذبوه، بل خرج منها أكثر تعلقاً بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وكأن كل ضربةٍ نزلت على جسده كانت تُرسّخ الإيمان في قلبه بدل أن تقتلعه، حتى صار من ألصق الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، ومن أقرب مستشاريه في الملمات.

الفصل الثاني

طلحة الخير — يوم أُحد

۞ ۞ ۞

◆ ١. اليد التي تلقّت السهام

تخيّل ذلك المشهد: جبل أُحد يلفظ صداه صراخ المعركة، والغبار يعمي الأبصار، وصفوف المسلمين التي كانت منظمة تنهار فجأة كبناءٍ ضربته ريحٌ عاتية، وسيوف المشركين تتجه نحو رجلٍ واحد يعرف الجميع أن سقوطه يعني سقوط كل شيء: رسول الله صلى الله عليه وسلم. في تلك اللحظة، حين انكشف الموقف عن النبي إلا من قلة ثبتت كالجبال، كان طلحة هناك، جسده يتحول إلى درعٍ بشري، ويده تتقدم كل سهمٍ طائش يقصد صدر النبي الشريف قبل أن يصل إليه بلحظة.

مرةً بعد مرة، سهمٌ بعد سهم، حتى فقدت أصابعه القدرة على الحركة، وتحول جسده إلى خريطةٍ من الجراح، بضعٌ وثلاثون جرحاً غائراً، ومع ذلك لم تتراجع قدماه شبراً واحداً إلى الوراء. كان الألم يصرخ في كل عصبٍ من جسده، لكن صوتاً أعمق من الألم كان يهمس له لا تتزحزح، فمن خلفك رسول الله. وهكذا وقف، جسده ينزف والنبي صلى الله عليه وسلم يُبصر خلفه فداءً لم يشهد التاريخ مثيلاً كاملاً له.

وحين هدأت عاصفة القتال أخيراً، ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الجسد الذي بدا وكأنه اجتاز موتاً بأكمله ونجا منه بأعجوبة، قال كلمات ستبقى محفورة في ذاكرة الأمة إلى الأبد: 'من أحبّ أن ينظر إلى رجلٍ يمشي على الأرض وقد قضى نحبه، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله'، وأضاف شهادةً لا تُمنح إلا لِمن اشترى الجنة بجسده: 'أوجب طلحة'. ومنذ تلك اللحظة، صار اسمه 'طلحة الخير'، وكأن الخير تجسّد في لحمٍ ودمٍ ووقف أمام أعين الناس شاهداً على أن الفداء ليس كلمة، بل جسدٌ يُقدِّم كاملاً.

الفصل الثالث

طلحة الفياض — كرمه وتجارته

۞ ۞ ۞

◆ ١. تجارةٌ تتحول إلى صدقة

كان بيت طلحة، في لحظاتٍ معينة من تاريخه، أشبه بمشهدٍ من مشاهد الأحلام: دراهم فضية مكوّمة كأنها كثبان رملٍ صغيرة تتلألأ في ضوء النهار، تسربت إليه من قافلة تجارية عظيمة قدمت من العراق محمّلة بثمار سنوات من الجهد والمخاطرة. وقفت زوجته أمام هذا المنظر مذهولة، تحاول أن تستوعب حجم الثروة التي غمرت بيتها فجأة.

لكن الذهول الحقيقي لم يكن في حجم المال، بل فيما حدث بعده: فما إن أقبل المساء حتى كانت تلك الكثبان الفضية قد تبخرت بالكامل، تناثرت على أيدي فقراء المدينة الذين لم يعرفوا مصدر هذا الخير المفاجئ الذي طرق أبوابهم. لم يُبقِ طلحة درهماً واحداً لنفسه، وكأن المال في يده كان ماءً لا يستقر، يجري نحو الأكف الفارغة بمجرد أن يلمسه.

◆ ٢. عطاءٌ لا ينقطع في السلم كما في الحرب

قيل فيه كلمةٌ تختصر سيرته كلها: 'كان يطعم حتى يجوع، ويلبس أهله حتى يعرى'. تأمل في هذه العبارة القصيرة: رجلٌ يُطعم الآخرين حتى يصل هو نفسه إلى حافة الجوع، ويكسو غيره حتى يقترب هو من العري. أليس هذا نوعاً من الجنون في منطق الدنيا؟ لكنه في منطق الإيمان أسمى درجات العقل، أن يرى المرء في جوع غيره أولوية على شبعه هو. وهكذا اجتمع في طلحة نوعان من الفداء نادراً ما يجتمعان في رجلٍ واحد: فداءٌ بالجسد يوم أُحد حين كان الثمن دمه، وفداءٌ بالمال في سائر أيامه حين كان الثمن راحته، وكأن حياته كلها كانت تمريناً مستمراً على معنى واحد: أن يُعطي.

الفصل الرابع

نهايةٌ في فوضى الجمل

۞ ۞ ۞

◆ ١. الخروج المتردد

بعد أن سالت دماء عثمان مظلومةً في مدينة الرسول، خرج طلحة لا بدافع السلطة التي لم يسعَ إليها يوماً، بل بدافع غيرةٍ صادقة على دم خليفةٍ رأى أنه أُريق بغير حق. سار مع أم المؤمنين عائشة والزبير بن العوام نحو البصرة، يحملون في صدورهم مطلباً واحداً: القصاص. وفي المقابل، رأى علي بن أبي طالب أن استقرار الأمة أولاً هو الطريق الأسلم لتحقيق العدالة لاحقاً بلا فوضى إضافية. وهكذا التقى اجتهادان صادقان لا خصمان يتقاتلان على غنيمة، بل رجلان يبكيان الدم نفسه من زاويتين مختلفتين.

◆ ٢. سهمٌ لا يُعرف قاصده

وفي خضم الغبار والصراخ وصوت السيوف، حين اختلط الصف بالصف حتى لم يعد أحدٌ يميز راية من راية، أتى السهم. لم يأتِ من عدوٍّ معلن، ولم يُطلق في مبارزةٍ يُعرف فيها الخصم، بل جاء طائشاً، مجهول المصدر، ليستقر في رجل طلحة. نزف الرجل الذي وقى النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أُحد، نزف حتى فارقت روحه جسده وسط معركةٍ لم يكن يريدها بين إخوةٍ في الدين. ويبقى السؤال معلقاً عبر التاريخ: مَن رمى ذلك السهم؟ ترجح بعض الروايات أن يداً حاقدة، يد مروان بن الحكم، استغلت فوضى المعركة لتصفية حسابٍ قديم لا علاقة له بالجمل أصلاً.

وهكذا، بسهمٍ لا يحمل اسم رامٍ ولا راية جيش، طوى القدر حياة رجلٍ كانت يده يوماً درعاً يحمي أعظم الأرواح، لتصبح النهاية بلا بطولةٍ معلنة ولا خصمٍ يُواجَه، بل غدراً صامتاً في زحمة معركةٍ يندم عليها كل مَن شارك فيها. رحمه الله وأرضاه، فقد كانت حياته كلها سؤالاً واحداً مكرراً: كيف أُعطي أكثر؟ وكانت نهايته إجابةً صامتة: حتى الروح.

الباب السادس

الزبير بن العوام

حواريّ النبي، وأول من سلّ سيفاً في الإسلام

الفصل الأول

ابن العمة — النشأة والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. نسبٌ قريب ودمٌ حامٍ

في عروق الزبير بن العوام بن خويلد جرى دمٌ يمتّ بصلةٍ مباشرة إلى بيت النبوة؛ فأمه صفية بنت عبد المطلب كانت عمة النبي صلى الله عليه وسلم، ما جعل الزبير ابن عمته بلا واسطة. ولعل هذا القرب الدموي هو ما فسّر تلك الحماسة المبكرة التي لم تنتظر بلوغه سن الرشد: أسلم وهو دون الخامسة عشرة، في عمرٍ ما زال فيه أغلب الفتيان يلهون بألعابهم، بينما كان قلبه الصغير يستوعب أعظم حقيقة عرفتها البشرية.

◆ ٢. أول سيفٍ يُسَلّ دفاعاً عن الإسلام

تخيّل مشهداً كهذا: غلامٌ لم يتجاوز عتبة المراهقة، يسمع إشاعة مفزعة تسري كالنار في هشيم مكة: أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتل لا وقت للتفكير، ولا مجال للتردد؛ يسلّ سيفه، سيفٌ ربما كان أكبر من ذراعه الصغيرة، ويندفع في أزقة مكة الضيقة، عيناه تلمعان بغضبٍ يفوق سنه، باحثاً عمن أشاع هذا الخبر، مستعداً لمواجهته وحيداً مهما كلّفه الأمر.

وحين لقيه النبي صلى الله عليه وسلم سالماً، حياً يُرزق، وسأله عن سيفه المسلول وعينيه المتقدتين، أخبره الغلام بصدقٍ عن الدافع الذي حرّكه: الدفاع عن رسول الله ولو بثمن حياته الغضة. فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بخيرٍ كثير. وهكذا سُجّل اسم الزبير في صفحات التاريخ الأولى: أول مَن سلّ سيفاً في سبيل هذا الدين، سيفٌ حمله طفلٌ قبل أن يحمله رجل.

الفصل الثاني

الحواريّ — شهادة النبي له

۞ ۞ ۞

◆ ١. 'إن لكل نبيٍّ حوارياً، وحواريّ الزبير'

هناك ألقابٌ تُمنح، وهناك ألقابٌ تُنحت من جوهر الرجل نفسه فلا تصلح لغيره. و'الحواريّ' كان من النوع الثاني، لقبٌ لم يتكرر لأي صحابي آخر مهما بلغت مكانته. في لحظةٍ عصيبة، حين احتاج النبي صلى الله عليه وسلم عيناً يستطلع بها خبر جيشٍ معادٍ يتحرك في الظلام، لم يتردد الزبير في التقدم ثم تكرر الطلب فتكرر منه الإقدام، مرتين متتاليتين في مهمةٍ لا يعرف صاحبها إن كان سيعود منها حياً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه يصوغ اللقب من معدنٍ خالص: 'إن لكل نبيٍّ حوارياً، وحواريّ الزبير'.

◆ ٢. فارسٌ في كل ميدان

لم يكن الزبير رجلاً يُظهر شجاعته في موقفٍ واحد ثم يخبو بريقها؛ بل كانت الشجاعة نسيجاً دائماً في حياته، تتجدد في كل ميدان يخوضه: بدر، أُحد، الخندق، وسائر الغزوات التي عرفتها الدعوة في مسيرتها. وحين امتدت الفتوحات لاحقاً إلى مصر، وتحصّن الروم خلف أسوار حصن بابليون المنيع، كان الزبير من اقتحم ذلك الحصار الطويل، فتيسّر بفضل إقدامه ما استعصى على غيره أشهراً كاملة، وتعجّل فتح مصر بإذن الله.

الفصل الثالث

ثروةٌ توزَّع قبل أن تُحصى

۞ ۞ ۞

◆ ١. تاجرٌ لا يحبس ماله

جمع الزبير ثروة واسعة من التجارة ومن غنائم الفتوح المتلاحقة، لكن يده لم تكن يداً تقبض، بل يداً تمد باستمرار. كان يُقرض الناس بسخاء، دون شروطٍ مرهقة تُذكّر المقترض بذلّ الحاجة، حرصاً منه أن يكون العطاء إعانةً صافية لا منّةً تُثقل كاهل صاحبها.

◆ ٢. وصيةٌ تُسدّد بها ديون الآخرين

وحين اقترب أجله، ترك وصيةً تكشف عن نفسٍ حاسبت ذاتها بدقةٍ متناهية: أن تُسدِّد كل ديونه من ماله. وحين فُتحت تركته بعد رحيله، اكتُشف أمرٌ يستحق التأمل الطويل: أن ثلث ثروته تقريباً كان مخصصاً لسداد ديونٍ لم يستدنها لحاجته الشخصية، بل استدانها عمداً ليُقرض بها محتاجين آخرين، خشية أن تضيع أماناتهم لو وافته المنية فجأة دون تسوية. أي حسٍّ مالي هذا الذي يعيش صاحبه حياة الفارس المحارب، ومع ذلك يرتب أوراقه المالية بدقة محاسبٍ يقظ لا يغفل لحظة؟

الفصل الرابع

الانسحاب الأخير من الجمل

۞ ۞ ۞

◆ ١. تذكيرٌ يهزّ القلب

تخيّل تلك اللحظة: جيشان يتقابلان على أرض المعركة، الغبار يتصاعد من حوافر الخيل، وقلوبٌ تنبض بتوترٍ ينذر بالدم. وفي وسط هذا التوتر، يتقدم علي بن أبي طالب بنفسه نحو الزبير لا بسيفٍ مصلت، بل بكلمةٍ تحمل ذاكرة قديمة: 'أتذكر يوم قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتحبه؟ فقلت: وما يمنعني؟ فقال: أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم؟'.

للحظةٍ، توقف الزمن في وجدان الزبير. حديثٌ نبوي قديم، دفنته زحمة السنين تحت ركام الأحداث، عاد فجأة يتصدر ذاكرته بكل وضوحه، وكأن صوت النبي صلى الله عليه وسلم يتردد من جديد في أذنيه. ارتجف قلبه، ووقف أمام حقيقةٍ لا مفر منها: أنه، رغم كل حججه، سيكون ظالماً إن قاتل. فقال بصوتٍ حاسم: 'والله لا أقاتلك بعد هذا اليوم'، وأدار فرسه منسحباً، تاركاً ساحة معركةٍ كان يمكن أن يكون أحد أبرز قادتها.

◆ ٢. غيلةٌ بعد الانسحاب

انسحب الزبير بكامل إرادته، تاركاً خلفه كل مجدٍ عسكري محتمل، مؤثراً طاعة الحديث النبوي على أي اعتبارٍ آخر. لكن الغدر لا ينتظر النوايا الطيبة؛ فقد تبعه رجلٌ يُدعى عمرو بن جرموز، يحسب في قلبه حساباتٍ من نوعٍ مختلف تماماً، حسابات الحظوة والمكافأة. تسلل خلف الزبير المنسحب، غير المستعد لقتال، وقتله غيلةً في لحظةٍ لم يكن الزبير يتوقعها.

جاء عمرو بسيفه إلى علي مفتخراً، يحمل خبراً ظن أنه سيُثلج صدر الخليفة. لكن وجه علي تجهّم غضباً، وخرجت كلماته كالصاعقة: 'بشّر قاتل ابن صفية بالنار'. لم يكن هذا الرفض القاطع مجاملة، بل تأكيداً صارخاً على أن هذه الحرب، مهما بلغت مأساويتها، لم تكن يوماً حرب ضغائن شخصية، بل اجتهاداً مؤلماً انتهى بفقدان رجلٍ كان بالأمس القريب حواريّ رسول الله، وأول من حمل سيفاً دفاعاً عن هذا الدين.

الباب السابع

سعد بن أبي وقاص

أول سهمٍ يُرمى في سبيل الله، وفاتح القادسية

الفصل الأول

خال النبي — إسلامه المبكر

۞ ۞ ۞

◆ ١. من السابقين إلى الإسلام

في زمنٍ كانت فيه كل نسمة إيمانٍ جديدة تُحسب وتُعدّ، كان سعد بن أبي وقاص واحداً من تلك الأنفاس الأولى النادرة. تربطه بالنبي صلى الله عليه وسلم صلة رحمٍ من جهة أمه، فاستحق لقب 'خال رسول الله'، لكنه لم يتكئ على هذا القرب النسبي، بل سبق إليه بقلبه قبل أن يُذكّره به نسبه. أسلم في السابعة عشرة من عمره، شاباً غضّ الإهاب، حتى قال معتزاً بموقعه بين الأوائل: 'لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام'، وكأنه يستحضر تلك الأيام حين كان المسلمون يُعدّون على أصابع اليد، وهو أحدهم.

◆ ٢. أول سهمٍ في سبيل الله

تخيّل الصوت الأول لسهمٍ يُشقّ الهواء في سبيل هذا الدين الوليد؛ ذلك السهم كان سهم سعد، في مناوشةٍ مبكرة سبقت الهجرة، حين كان الإيمان لا يزال بذرة تحتاج من يحميها. وفي أُحد، حين احتدم القتال وأحاط الخطر بالنبي صلى الله عليه وسلم من كل جانب، كان سعد يرمي سهماً تلو سهم، والنبي صلى الله عليه وسلم بنفسه يناوله إياها، وهو يقول كلمات لم تُقل لأحدٍ غيره بهذا الشكل: 'ارمِ، فداك أبي وأمي'. تأمل عظمة هذه اللحظة: أن يفدي النبي صلى الله عليه وسلم صحابياً بأعز ما يملك من نسبٍ، أبيه وأمه معاً، شهادةٌ فريدة لم تتكرر.

الفصل الثاني

فاتح العراق — يوم القادسية

۞ ۞ ۞

◆ ١. القائد الذي اختاره عمر لأخطر جبهة

حين وقف عمر بن الخطاب أمام قرارٍ يحدد مصير الأمة، مواجهة إمبراطورية فارس في عز جبروتها، لم يبحث عن أشجع الفرسان فحسب، بل عن قائدٍ يجمع بين الحكمة والإقدام معاً. فاختار سعداً. والتقى الجيشان في القادسية، حيث اصطفت آلاف السيوف الفارسية اللامعة في مواجهة صفوفٍ إسلامية أقل عدداً وعتاداً بكثير. لكن ما بين الصفين لم يكن ميزان الحديد وحده هو الفيصل، بل شيءٌ أعمق كان يسري في قلوب المقاتلين المسلمين. وحين انقشع غبار المعركة، كان النصر قد مال إلى الجانب الذي كان الأضعف ظاهرياً، وانفتح العراق كله أمام الفتح.

◆ ٢. المدائن ومسجد الكوفة

ثم كانت المدائن، عاصمة الأكاسرة، تلك المدينة التي طالما تخيّلها العرب حصناً لا يُقهر. دخلها سعد فاتحاً، ووقف في إيوان كسرى الشهير، ذلك الصرح الذي طالما رمز لعظمة فارس الغابرة، وصلّى فيه لله وحده. كم من الرموز انهارت في تلك اللحظة ثم اختطّ مدينة الكوفة، لتصبح منارة جديدة للإسلام في أرض العراق، ويُخلّد اسمه إلى جانب فاتحي الأمصار الكبار.

الفصل الثالث

دعوةٌ مستجابة وورعٌ نادر

۞ ۞ ۞

◆ ١. 'اللهم استجب لسعد إذا دعاك'

كان اسم سعد يُثير في قلوب من حوله حذراً مختلطاً بالتقدير؛ فهذا رجلٌ شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأن دعوته لا تُرد. ولما اشتكاه بعض أهل الكوفة زوراً إلى عمر، دعا عليهم دعوةً محددة: أن يُطيل الله عمر أحدهم حتى يفتقر ويسأل الناس. ومرت السنون، وتحققت الدعوة حرفياً: شيخٌ طاعن في السن، يمد يده للناس متسولاً، يعترف حين يُسأل: أصابتني دعوة سعد. أي رهبة تسكن قلباً يعرف أن كلماته ليست مجرد كلام، بل أقدارٌ تتحرك بإذن الله؟

◆ ٢. الاعتزال في الفتنة

حين اشتعلت نار الفتنة بين علي ومعاوية، وانقسم المسلمون بين معسكرين، اختار سعد موقفاً ثالثاً نادراً: الصمت والاعتزال. لم يكن جبناً، بل ورعاً عميقاً، إذ قال بحكمةٍ :'لا أقاتل حتى تأتوني بسيفٍ له عينان يفرّق بين المؤمن والكافر'. انسحب إلى مزرعته البعيدة عن ضجيج السياسة وصخب السيوف، وعاش هناك بقية أيامه بسلام، ليكون آخر العشرة المبشرين بالجنة رحيلاً عن هذه الدنيا.

الباب الثامن

سعيد بن زيد

زوج أخت الفاروق، وصاحب الدعوة المستجابة على الظالم

الفصل الأول

بيتٌ آمن قبل عمر

۞ ۞ ۞

◆ ١. إسلامٌ سبق إسلام عمر

خلف جدران بيتٍ متواضع في مكة، كان سرٌّ يُحفظ بحذرٍ شديد: أن سعيد بن زيد، ابن عم عمر بن الخطاب، وزوجته فاطمة أخت عمر، قد آمنا بهذا الدين الجديد قبل عمر نفسه بزمن، ويخفيان إيمانهما عن أقرب الناس إليهما خشية بطشه المعروف. وحين جاء ذلك اليوم الذي خرج فيه عمر يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم ثم عرف بإسلام أخته وختنه، اتجه إليهما غاضباً كالعاصفة، وضرب سعيداً وضرب أخته حتى نزف الدم من وجهها. لم يكن يعلم أن تلك اللحظة بالذات، تلك اللطمة وذلك الدم، ستكون الشرارة التي ستُشعل تحوّله هو نفسه نحو النور.

◆ ٢. من العشرة المبشرين رغم فوات بدر

غاب سعيد عن بدر لا تقاعساً، بل لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله في مهمة استطلاع حساسة مع طلحة، ففاتتهما المعركة الكبرى. لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحرمهما أجرها، بل ضرب لهما بسهمٍ كامل من الغنيمة، تعليماً خالداً أن الأجر عند الله يُقاس بصدق النية وسعيها لا بمجرد الحضور الجسدي في الميدان.

الفصل الثاني

دعوةٌ على الظلم لا على الأشخاص

۞ ۞ ۞

◆ ١. أروى بنت أويس وأرض المدينة

في خريف حياته، وُجّهت إلى سعيد تهمة ظالمة: أن امرأة تُدعى أروى بنت أويس زعمت أنه اقتطع من أرضها جزءاً بغير حق. وقف الرجل الشيخ أمام هذا الاتهام بثقة مَن يعرف براءته، وقال بصوتٍ يحمل ذكرى نبوية راسخة: 'أتراني أخذت من أرضها شيئاً بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طُوّقه يوم القيامة من سبع أرضين ؟'ثم رفع يديه إلى السماء بدعوةٍ تحمل ثقل اليقين: 'اللهم إن كانت كاذبة فأعمِ بصرها، واجعل قبرها في دارها'.

◆ ٢. استجابةٌ لم تتأخر

مرت الأيام، وتحقق ما دعا به سعيد حرفياً: عَمِيت أروى ثم سقطت في بئرٍ داخل دارها فماتت. أليس في هذا المشهد رهبة تهزّ القلب؟ أن يرى المرء استجابة السماء لدعوة مظلومٍ صادق تتحقق أمام عينيه في هذه الدنيا قبل الآخرة. لكن الأجمل من الاستجابة نفسها هو دافعها: لم تكن دعوة انتقامٍ من عدو، بل استغاثة بريءٍ وُجّهت إليه تهمة باطلة، فردّ الأمر كله إلى الله، تاركاً له وحده الحكم والفصل.

الباب التاسع

عبد الرحمن بن عوف

التاجر الذي رفض نصف مال أخيه، وأمين الشورى

الفصل الأول

'دلّوني على السوق'

۞ ۞ ۞

◆ ١. الهجرتان وصفر اليدين

وصل عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة مهاجراً بعد أن هجر الحبشة أولاً ثم مكة، ولم يحمل معه من ثروته التجارية الضخمة شيئاً، فقد تركها كلها خلفه دون تردد؛ يداه فارغتان، لكن قلبه ممتلئٌ يقيناً. أي مفارقة أن يترك تاجرٌ ناجح كل ما بناه بيديه، ليصل مدينةً غريبة لا يملك فيها حبة قمح؟

◆ ٢. الأخوّة التي رفض فيها نصف المال

حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، حدث مشهدٌ يُحيّر العقل من فرط سخائه: عرض سعد على أخيه الجديد نصف ثروته كاملة، بل وإحدى زوجتيه أيضاً. توقف عبد الرحمن للحظة أمام هذا العرض السخي الذي قلّ نظيره في تاريخ البشرية ثم ابتسم، وقال كلمات ستبقى مثالاً للاعتماد على النفس عبر الأجيال: 'بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق'. لم يرفض الأخوّة، بل رفض أن يكون عالة عليها؛ فمضى إلى السوق بيدين فارغتين وعزيمة لا تعرف الكلل، وما هي إلا أشهر معدودة حتى عاد تاجراً غنياً من جديد، بجهده هو لا بمنّة أحد.

الفصل الثاني

التاجر الذي لا تُلهيه تجارته

۞ ۞ ۞

◆ ١. قافلةٌ تهزّ المدينة

تخيّل ذلك اليوم: صوتٌ هائل يهزّ أرجاء المدينة المنورة، حتى ظنته أم المؤمنين عائشة زلزالاً مفاجئاً. لم يكن زلزالاً، بل كان صوت سبعمائة راحلة تدخل المدينة دفعة واحدة، محمّلة ببضائع قافلة عبد الرحمن التجارية القادمة من الشام. ثروة هائلة، تكفي لتغيير حياة رجلٍ إلى الأبد. لكن ما فعله بها عبد الرحمن غيّر المشهد كله: تصدق بالقافلة بأكملها، بكل ما تحمله، لله وحده، في لحظةٍ واحدة محت أثر تلك الثروة كأنها لم تكن.

◆ ٢. خشيته من فتنة الغنى

لكن خلف هذا الكرم الظاهر، كان يعتمل في صدر عبد الرحمن قلقٌ عميق لا يهدأ. بكى يوماً وهو ينظر إلى مائدة طعامٍ فاخرة أمامه، وتذكر مصعب بن عمير الذي استُشهد فلم يجدوا ما يُكفِّن فيه جسده الطاهر إلا بردة قصيرة تكشف رأسه إن غُطي بها قدماه. قال بصوتٍ يهتز من الأسى: 'استُشهد مصعب وهو خيرٌ مني ..ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، فقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا'. أليست هذه أعمق مفارقات الإيمان: أن يخاف الغني من غناه، بينما يفرح كثيرون بما يملكون دون تفكير؟

الفصل الثالث

أمين الشورى

◆ ١. مهمة اختيار الخليفة

حين حصر عمر الخلافة في ستة رجال، ووجد عبد الرحمن نفسه واحداً منهم، فعل ما لم يكن أحدٌ يتوقعه: تنازل عن حقه في الترشح، وطلب أن يكون هو مَن يختار بدلاً من أن يُختار. ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، لم يذق فيها طعم الراحة، طاف فيها على بيوت الصحابة وأزقة المدينة وأسواقها، يسأل ويستمع ويزن الكلمات بميزان الأمانة، حتى استقر رأي الأمة على عثمان.

◆ ٢. زهدٌ في المنصب رغم القدرة عليه

كان بإمكان عبد الرحمن، بمكانته ومحبة الناس له، أن يكون هو الخليفة بلا منازع تقريباً. لكنه آثر دور الحكم النزيه على دور الحاكم المطاع، مكتفياً بأن يمنح الشرف لا أن يحمله. أليست هذه القمة الثانية من الزهد بعد قمته الأولى في رفض نصف مال أخيه؟ رجلٌ يملك كل مفاتيح السلطة، ويختار أن يُبقيها مغلقة أمامه بيده هو.

الباب العاشر

أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة، وفاتح الشام

الفصل الأول

أمين الأمة

۞ ۞ ۞

◆ ١. لقبٌ من فم النبي صلى الله عليه وسلم

هناك رجالٌ تُوصف أفعالهم، وهناك رجالٌ يُوصف جوهرهم كله بكلمةٍ واحدة تكفي. عامر بن عبد الله، المعروف بأبي عبيدة بن الجراح، كان من هذا النوع الثاني: قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم، في وصفٍ لم يتكرر لغيره: 'لكل أمةٍ أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح'. لم يكن هذا اللقب مجاملة تُقال وتُنسى، بل كان حقيقة تتحرك على الأرض، حتى إن أهل نجران أنفسهم، حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلاً أميناً، لم يفكر النبي صلى الله عليه وسلم للحظة قبل أن يختار أبا عبيدة تحديداً.

◆ ٢. قتل أبيه دفاعاً عن الدين

تخيّل ذلك المشهد المروع: ساحة بدر، والغبار يتصاعد، وأبٌ مشرك يشق صفوف المعركة متعمداً، باحثاً عن ابنه بعينين تحملان يقيناً خاطئاً بأن صلة الدم ستشلّ ذراعه. اقترب الأب من ابنه، أبو عبيدة، يتحداه بصلف مَن يظن نفسه في مأمن. لكن لحظة الحقيقة جاءت سريعة وحاسمة: لم تتردد يد أبي عبيدة، ولم يخنه قلبه؛ رفع سيفه وقاتل أباه حتى أرداه قتيلاً، مقدماً حق الله على أقرب رابطة يعرفها الإنسان. أي ثقلٍ حمله ذلك القلب في تلك اللحظة، وأي يقينٍ صلبٍ جعله يفعل ما لم يقدر عليه كثيرون؟ ونزلت الآية شاهدةً على هذا الموقف: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾.

الفصل الثاني

فاتح الشام

۞ ۞ ۞

◆ ١. القيادة بعد عزل خالد

حين قرر عمر عزل خالد بن الوليد عن قيادة جيوش الشام، لم يكن القرار طعناً في سيفٍ ظل ظافراً في كل معركة، بل حكمةً تحمي قلوب الجند من فتنة الاعتقاد بأن النصر يأتي من بشرٍ لا من الله. وتولى أبو عبيدة القيادة، بينما قَبِل خالد هذا التحول بنفسٍ راضية نادرة، وواصل القتال جندياً بسيطاً تحت راية مَن كان بالأمس يقوده هو. أي نُبل هذا الذي يجمع بين رجلين: أحدهما يتنازل بلا ضغينة، والآخر يقود بلا تعالٍ؟

◆ ٢. فتوحاتٌ متتالية

بقيادة أبي عبيدة الهادئة الحازمة، سقطت مدن الشام واحدة تلو الأخرى: دمشق، حمص، بعلبك، أنطاكية، حتى اكتمل تحرير الشام من حكم الروم. وعُرف بعدله الفائق مع أهل البلاد المفتوحة، حتى إن أهل حمص أنفسهم، حين خشوا عودة الروم، ردّوا للمسلمين المنسحبين ما أخذوه منهم من جزية، وطلبوا بقاءهم، مفضّلين عدل الفاتحين على ظلم من عرفوه من قبل.

الفصل الثالث

طاعون عمواس

۞ ۞ ۞

◆ ١. الثبات وسط الوباء

ثم جاء الاختبار الأخير لا بسيفٍ ولا برمح، بل بوباءٍ خفي لا يُرى: طاعون عمواس، الذي حصد آلاف الأرواح في الشام، بينهم كبار الصحابة. كتب عمر إلى أبي عبيدة، بقلبٍ يخشى أن يفقد أمين الأمة، يأمره بالخروج فوراً من أرض الوباء. لكن أبا عبيدة، بحسٍّ لا يخطئ، أدرك مقصد عمر الحقيقي، فردّ عليه برسالةٍ تفيض رقة: كيف أنجو بنفسي وأترك جنودي يواجهون الموت وحدهم؟

◆ ٢. خطبته الأخيرة ووفاته

وقف أبو عبيدة أمام جنوده المرعوبين من هول ما يرونه حولهم من موتٍ يحصد الأرواح دون تمييز، وألقى خطبةً ستبقى منارة للثبات: 'أيها الناس، إن هذا الطاعون رحمةٌ من ربكم، ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه نصيباً'. وكأن الكلمات كانت دعاءً استُجيب فوراً: أصابه الطاعون بعدها بقليل، فمات وفياً لكلمته حتى النَفَس الأخير، مختاراً البقاء بين جنوده على النجاة وحيداً، ليختم بذلك حياةً بأكملها كانت الأمانة عنوانها الوحيد من أولها إلى آخرها.

خاتمة الكتاب

العشرة المبشرون بالجنة — عقدٌ كامل

بهذا يكتمل عقد العشرة المبشرين بالجنة كاملاً في هذا الكتاب: أربعةٌ حملوا الخلافة، وستةٌ آخرون حملوا الدين كلٌّ بطريقته: طلحة بجسده، والزبير بسيفه، وسعد بقيادته العسكرية، وسعيد بورعه، وعبد الرحمن بتجارته وزهده فيها، وأبو عبيدة بأمانته حتى الموت. عشرة رجالٍ، بعشر شخصياتٍ متمايزة كل التمايز، جمعهم جميعاً دينٌ واحد ومصيرٌ واحد: شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة وهم أحياء يمشون بين الناس.

وهذا التنوع الشديد بين العشرة، مع اتفاقهم جميعاً على جوهرٍ واحد من الصدق والتضحية، هو الدرس الأخير الذي يُختم به هذا الكتاب: أن الطريق إلى الله ليس طريقاً واحداً بعينه، بل طرقٌ متعددة بتعدد النفوس البشرية، يجمعها كلها إخلاصٌ واحد. وتبقى الحكمة التي افتتحنا بها هذا الكتاب هي خاتمته أيضاً: أن القلوب جميعاً، مهما اختلفت طبائعها وتنوعت مسالكها، تبقى بين يدي القدر.

تم بحمد الله — سِيَر العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم أجمعين

المصادر والمراجع

التي استُقيت منها مادة هذا الكتاب

۞ ۞ ۞

◆ ١. كتب الحديث الشريف

صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري — ومنه: حديث تصديق أبي بكر بالإسراء والمعراج، وحديث 'أوجب طلحة' (وأصله فيه)، وحديث بشارة أم حرام بنت مِلحان بالغزو البحري، وحديث لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم'.

صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج — ومنه: حديث دعوة سعيد بن زيد على أروى بنت أويس، وأحاديث فضائل جملة من العشرة المبشرين بالجنة.

سنن الترمذي، للإمام محمد بن عيسى الترمذي — ومنه: تفصيل حديث 'أوجب طلحة' بسندٍ حسّنه الترمذي.

المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، وحلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني — وقد استُقيت منهما بعض الروايات المشهورة في فضائل الصحابة، وبعضها أقل ثبوتاً من غيره كما نُبِّه عليه في موضعه.

◆ ٢. كتب السيرة النبوية

السيرة النبوية، لابن هشام (تهذيب سيرة ابن إسحاق) — المصدر الأساس لقصة إسلام عمر بن الخطاب، وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وغزوات بدر وأُحد والخندق والحديبية.

زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيّم الجوزية — ومنه استُلهم كثيرٌ من الطابع التحليلي والتربوي في عرض الأحداث.

◆ ٣. كتب التاريخ الإسلامي

تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، لمحمد بن جرير الطبري — المصدر الرئيس لأحداث الردة، والفتوحات، ومقتل عثمان، وموقعتي الجمل وصفين، والتحكيم.

البداية والنهاية، لابن كثير — لتفصيل أحداث الخلافة الراشدة كاملة، ووفيات الصحابة ومناقبهم.

الكامل في التاريخ، لابن الأثير — ومنه رواية تذكير علي للزبير بالحديث النبوي قبيل انسحابه من موقعة الجمل.

الطبقات الكبرى، لابن سعد — لتفاصيل النسب والنشأة وأخبار الفتوح والعمران.

◆ ٤. كتب التراجم ومناقب الصحابة

الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني — ومنه تراجم العشرة المبشرين بالجنة تفصيلاً.

أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، وسير أعلام النبلاء، للذهبي — لمناقب الصحابة وأخبارهم ووفياتهم، وقد اعتُمد عليهما أيضاً في تقييم بعض الروايات سنداً كقصة 'علي والدرع عند اليهودي' التي نُبِّه على ضعفها في موضعها.

تنبيهٌ ختامي: هذا كتابٌ أدبي تربوي لا كتاب حديثٍ متخصص، فقد اجتهدنا في التحقق من أصل الروايات المشهورة المنقولة فيه، ونبّهنا صراحةً على ما وقفنا على ضعفه منها، لكن العهدة في تفاصيل الأسانيد الدقيقة تبقى على المصادر الأصلية المذكورة أعلاه، فهي المرجع لمن أراد التوسع والتحقق.